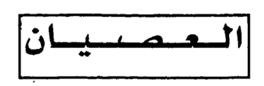

ألبرتومورافيا
سلسلة الأدب العالمي
08
العصيان
INTERNATIONALITY
العالمية للكتب والنشر


العصيان

ألبرتو مورافيَا

العصيان

ترجمة

خَليْل حَنَّا تادروس



العالمية للكتب والنشر

العصيان

ألبرتو مورافيا
ترجمة خليل حنا تادرس

الطبعة الأولى / 2008

رقم الإيداع 8836/ 2008

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة



الناشر



١٥ الفاروق عمر بن الخطاب - الطالبية - فيصل - الجيزة
تليفون وفاكس: ٣٧٢٢٣٧٢٧ محمول: ٠١٢٢٥٩٥٩٧٣

الفصل الأول

شعر لوقا اثر عودته إلى المدينة بعد أن قام بتمضية عطلة الصيف على ساحل البحر كما هى العادة كل عام وفى مثل هذا الوقت من السنة.... شعر بأن صحته ليست كما يرام وليست كما كانت قبل أن يذهب الى الساحل... شعر أن هناك مرضٍ ما يسعى فى جسد جعله معلولا... أحس بتلك الجرثومة وهى تسرى فى بدنه وتخضب جسده.

وأحس ضمن ما أحس فى تلك الأيام الاخيرة إنه قد كبر بصورة مفاجئة، ورغم ان عمره هو الخامسة عشر ربيعاً ألا قد صارت له قامة الرجال.... ولكن كتفاه ظلا على ما هما عليه من ضيق وصغر.... وتبدو على ذلك الوجه الابيض الخاص به عينان واسعتان يظهر عليهما أنهما تلتهمان خديه الاجوفين وجبينه الأصفر...

إنه لو انتبه إلى الضعف المتسلط على جسمه وانتبه للاخطار التى قد تنتج عن هذا الضعف إذاً لحاول الاصرار لدى والديه ليسمحا له بالانقطاع عن الذهاب إلى المدرسة مؤقتا ولكنه كما هى العادة فى ذلك السن وبتلك الحساسية التى يتميز بها اصحاب سن المراهقة، لم يكن فى مقدوره أن يبنى العلاقة بين حالته الصحية المتقهقرة وبين نفوره المعتاد من المدرسة.

لقد ذهب دوما الى المدرسة ويبدو له طبيعيا دوام الذهاب اليها حتى لقد ظهر له احياناً إن الاشياء التى كان عليه أن يتعلمها لم يكن تظهر له موزعة بترتيب وفقا لايام الشهر والسنة المدرسية، اذ إنها كانت تجتمع جميعها أمامه منتصبة كشىء يشبه الجبل الأملس السفوح الذى لا يستطيع أن يتخطاه الإنسان ولا يرقى إلى الصعود اليه.

لم تكن تنقصه الارادة ولكن لم يكن يعرف اى اندفاع جسمانى لأن شجاعته

الجسدية تتقصه هذا الجسد الذى كان يبدو له إنه لايلبيه كالحصان الذى أنهكه التعب وأضناه فيرفض الجري والانطلاق تحت فارسه رغم المهماز الذى ينهزه به صاحبه الفارس الذي يمتطيه.

ولكن هذا الجسد نفسه كان يثور احياناً وبإيعاز غير ملموس من لوقا ايعاز خفي سرعان ما يلبيه الجسد ولم تكن تلك الثورة على اشياء ذات قيمة بل هي امام تلك الاشياء التافهة الواقعة الحدوث كل يوم ولمختلف الناس.

لقد كان لوقا فى تلك الأيام رهن لوقوع اضرابات عنيفه وطارئة يبدو من خلالها ان جسده الضعيف الواهن يقوم بافناء القوى القليلة الباقية له فى نوبات من العصيان والحقد، وكان ذلك العصيان يظهر فى أقل الامور تفاهة فى حياته اليومية كنوع من إثبات الذات، كان لوقا يعتقد إن ذلك العالم جميعه قد تكاتف ضده وإنه يشاكسه، واعتقد انه أصبح عدو المجتمع وان ذلك المجتمع قد أضرم نيران الحرب عليه حتى لقد اعتقد لوقا انه فقد السيطرة على أبسط الاشياء وان عدم السيطرة تلك قد وصلت إلى الذروة أثناء الاجازة الصيفية... وعلى سبيل المثال ذلك الحادث، الذى وقع له وأيد ذلك التفكير الذى فى ذهنه عن تلك العداوة القائمة بينه وبين الحقيقة التى تحيط به، كان لوقا يحب القيام ببعض الاصلاحات التى يعتقد هو انها ضرورية بالبيت، فان من تلك العادات التى اكتسبها لوقا إنه كلما وجد اعطالا فى الكهرباء بالمنزل فانه يسارع باجراء الاصلاحات التى يجدها ضرورية، وحدث فى احدى الامسيات على اثر حدوث شرارة بين بعض اسلاك الكهرباء فى المنزل ان انطفأ النور.... فقامت والدته بالنداء عليه طالبة منه ان يقوم بارجاع النور واصلاحه اذا امكنه ذلك، واحضر لوقا مهداته وشرع على الفور فى اتخاذ اجراءات الاصلاح.... ولكن إهماله جعله يلمس تلك الاسلاك من دون أن يتخذ اجراءات الوقاية من الكهرباء وعزل التيار قبل ان يلمسه فسرعان ما مسه تيار الكهرباء تلك المسه التى جعلت جسده يرتعش من الالم فصرخ لوقا وهو ينطرح أرضا ولم يدر بنفسه إلا والبكاء يدفعه إلى الصياح وأسرع إلى أحضان أمه وهو يبكى كالأطفال وكان جسده

يرتجف لا يدري من الالم أم الخوف... وأصيب بحروق فى يديه التى مست ذلك السلك المكشوف، وعلى قدر تفاهة هذا الموضوع عند كثير من الناس إلا أن لوقا أخذ يعانى من تلك الحادثة زمنا طويلاً وذلك لفرط حساسيته كما ذكرت من قبل وسوف نسوق حادثة أخرى فى هذا المجال :

فى اثناء عودته من اجازة العطلة الصيفية وقبل وصوله إلى المدينة بوقت قليل تملكه غضب آخر وهو فى القطار. فقد صحى من النوم بساعة مبكرة وتناول طعام فطوره بسرعة فى البيت الذى كان بحاله من الفوضى فى وسط الصناديق والحقائب وبينما هو يتناول، كأساً من الحليب الرديء اللون سمع صوت أمه وهى تقول له :

– تناول طعامك جيداً إذ ان الطعام يتأخر تقديمه فى عربة الطعام بالقطار.

وبدا له انه سوف يتناول طعامه باحدى عربات الطعام التى شاهدها فى احد القطارات اثناء وقوفها... وأطلق العنان إلى خياله للتفكير فى ذلك الطعام الذى سوف يقدمونه له... وتخيل ان مذاق اللحم والحساء بالتأكيد سيكون لهما مذاقاً خاصاً وهو يتناولهما بجانب تلك النافذه والقطار ينهب الارض باتجاه المدينة ومناظر الريف البديعة تمر أمام عينيه والقطار يسابق الريح.... ان من فرط حساسية لوقا إنه يكره ان يراه احد من الناس فى ذلك الوضع وهو يتناول ساندويتشا... وانه يكره ايضا الاكل وسط فتات الطعام وقشور الفواكه، وما إلى ذلك من مثل هذه الاشياء.

ومر الرجل الذي يحجز اماكن الطعام للمسافرين امام مقاعد أسرة لوقا، وانتظر لوقا من والده أن يقوم بحجز الاماكن لهم فى عربة الطعام ولكن والده لم يفعل، وظن لوقا ان والده ينتظر الدور الثانى للحجز، ولكن والده لم يفعل وقال :

– ان ذلك الطعام الذى يقدم فى عربة القطار لايتسم بالجودة كما انه مرتفع

القيمة وعلى ذلك لسوف نتناول طعامنا فى مطعم الاورفياتو فهو يقدم خدمات ممتازة وأسعار أقل من أسعار القطار.

لم يكن والد لوقا يتكلم هذا الكلام عن بخل أو قله اليد ولكنه تكلم هذا الكلام عن بساطة وحسن النية وأجابت والدته ايضا بتلك الكلمات السريعة :

- كما تريد.... على الرغم من نظافة عربة القطار.

وانتهت تلك المناقشه السريعة الهادئة والتى لم تستغرق اكثر من دقيقتين بفوز الأب، فوز تافه كان بالتقاء روحين شقيقين فى ملتقى طريقين متشابهين، ولكن لوقا ورغم إنه كان يعلم ان والديه لم يتفقا عليه إلا انه غضب لذلك غضباً شديداً ان ما اغاظه فى ذلك الموضوع هو ان والداه قد أغفلا رأيه ولم يسألاه عن رغبته وربما لو فعلا لقال لوقا مثلما قال والده وانتهى الموضوع عند ذلك الحد من المناقشة ولكن شعورا آخر جاءه يزيد فى بلائه الكثير، شعور لم يعرف ما نشأته ولا يتعلق فى موضوع هذه المعاكسة الخاصة. ذلك الغضب الاعتيادى الذى بدا قادما من بعيد انفجر فجأة كحريق شديد يحرقه ويهزه بأكمله فشحب لونه وصر على أسنانه بقوة وأغمض عينيه شاعرا بنفسه قد أصبح كل شىء عنده قاس على اثر هذا الغضب الشديد الذى منح الصلابه لجسمه، وخلال ذلك راودته رغبة فى الانتحار بفتح باب القطار وهو يندفع بأقصى سرعاته ورمىّ نفسه خارجه.

لم تفزعه فكرة الانتحار ولم تكن تبدو له غريبة فلقد كانت كما فهمها، النتيجة الحتمية لشعوره الهائج من عدم القدرة على التفكير وتلك التى كانت تزعجه، وعلى كل لم تكن الاهمية تنحصر فى شعوره بأن والديه هما الآخرين قد اصبحا من نفس المواد المعادية لتفكيره.

ورغم هذا التفكير لم يتخل عنه غضبه، ونظر إلى والده وهو ينزل من القطار ويقوم بشراء ذلك الطعام الجاهز من مطعم أورفياتو ثم وهو يعود لاهثا الى العربة ثانية ثم وهو يسأله :

- هل تريد تناول طعامك الآن أم تنتظر قليلا ؟...

وهمس لوقا بتلك النبرة من الحزن:

- سوف انتاول طعامى معكما.

لم يستطع لوقا أن يتحمل أن يجلس فى مكانه إذ أحس ان موجة من السخط والغضب قد اجتاحته ولذا فضل أن يغادر مجلسه ومن ثم فقد قام من مقعده واتجه إلى المرحاض مباشرة وأغلق عليه الباب بعد ان قام بصفقه بصورة عنيفة معبرا عن غضبه ومرارته.... وتقدم الى المرآة المعلقة على جدار الباب ثم فتح فمه على مصراعيه وأخرج صرخة احتجاج مكتومة عبّر بها عن سخطه على اسلوب الحياة التي تجافيه... كان فى حقيقة الامر يولول من دون ان تخرج من فيه تلك الصرخات... ان كل جسمه يحتج ويصرخ من دون أن يصدر عنه اي صوت.

وأخذ يطل من نافذة المرحاض على تلك المناظر الريفية التى تمر امامه وظل هكذا مدة طويلة ثم خرج وعاد إلى المقصورة حيث يجلس والداه...

كان والده قد اخرج تلك الساندويتشات التى قام بشرائها وابتدأ فى عملية توزيعها، وقال للوقا :

- هذه لك.

ثم وجه كلامه الى زوجته :

- وانت...

وتناول لوقا قطعة من الخبز بها قطعة من اللحم البارد وغض فيها على اسنانه والغضب يكاد يعصف به ولم يكن له شهية فى تناول ذلك الطعام ولكنه بالرغم من ذلك تناوله وهو ينظر إلى والديه وهما يتناولان طعامهما بهناءة وسرور وابتسامة.

وما كاد ينتهو من الأكل حتى شعر ان ما تناوله من طعام لم ينزل فى بلعومه وإنما ظل، غاضبا هو الآخر فى حلقه.

سيطر الغضب على لوقا وأصبح كما لو ان جسده بأكمله قد صار يابسا وان عقله قد صار مرتبكا إلى الابد وكان ينظر إلى المناظر الطبيعية التى تمر امامه على انها لم تكن موجودة وكان يشعر بثقل ذلك الطعام الذى تناوله وكأنه حمولة ثقيلة للغاية على معدته أحس ان هناك شيئا ما بداخل معدته مغلق ومجلد بورق رقيق مملؤة بالاشياء التى لم تمضغ جيداً، صرة كبيرة شبيهة شبها غريبا بتلك التى تقذفها الخادمات إلى القطط على أزقة الشوارع.

وكأنما احست والدته ان ابنها ليس على مايرام فأخذت تتحسس جبينه خشية ان يكون مرجع ذلك الى ارتفاع فى درجة حرارته ولكنها لم تجد شيئا فنظرت اليه متسائلة ولكنه لم يفصح عن شىء مما يجول فى خاطره لها.

وصل القطار أخيراً الى محطته النهائية وغادر لوقا وأسرته مقصورتهما إلى الخارج... وما زال لوقا يشعر انه على وشك الغثيان وسرعان ما فعلها لوقا عندما اصطدم به أحد الناس خارج المحطة وهو يلتهم ساندويتشا وما أن شم لوقا الرائحة المنبعثة من داخله حتى اسرع وأفرغ ما فى جوفه من حمولة كانت عبئاً كبيراً عليه وسمع والدته تقول :

– كنت اعرف انه ليس على ما يرام.

وفى نفس الوقت شعر بيد تسند جبينه، اما والده فقد كان يكتفى بأن يكرر بنبرة مطمئنة :

– لاشىء... لاشىء....

أما لوقا الحانق الغاضب فقد بدأ بالعويل والبكاء، وبينما كان والديه يذهبان به وهو يبكى مهزوما، كانت والدته تقول له بثنق :

- لماذا تبكي ؟... تكاد أن تصبح رجلا وتبكي ؟

ولقد بدا للوقا ان عملية التقيء على القطار كانت نوعا من الانتقام من هذا القطار الذى اعاده إلى المدينة، إلى المدرسة، إلى الدرس، ومن والديه اللذين رفضا له فرصة التمتع بتناوله طعامه بعربة الاكل بالقطار.

الفصل الثانى

وصل لوقا إلى المدينة إلى الشقة التى شهدت ثورة غضبه القديم ولكن ذلك الغضب قد أخذ شكلاً جديداً بحكم العادة والسأم... وتحول هذا الغضب إلى نوع من الرفض والتخلي، ومع ذلك فلقد كان غضبه دوما ودائما هذا الاندفاع الثائر، ولكنه قد علم بالانكسارات التي تحمّلها وقاساها فتحول إلى صمم ورفض دائمين، ولم يكن لوقا يعلم شيئا عن أساليب المحاربة الطبقية، والا لما كان قد تأخر بالتعرف فى الشكل المتخذ من قبله لثورته ضد العالم، مميزات الاضطراب.

لم يعد جسمه يتطلب اندفاعات مخربة وأصبح مثل خيط مرن يرفض الامتداد بعد الآن فتركه وشأنه، وأغلب الاحيان وخلال الساعات الطويلة التى كان يقضيها بعد ظهر كل يوم أمام الطاولة فى غرفته كان يفاجأ بأن النوم والنعاس قد اخذوا طريقهم إلى جفونه هكذا دون أن يكون ذلك موعد نومه، لقد كانت كل تلك الاغفاءات بدون، ان يعلم، مجرد اغفاءات سوداء... فارغة... لا أمل فيها ولا أمنية، مجرد غيبوبة تفاجئه وسط مذاكراته او قراءاته لاحد الكتب ولم يكن ذلك الكلام الذى يقوله لنفسه :

- لسوف اتم قراءة ذلك الكتاب ثم أخلد إلى النوم.

لم يكن ذلك القول أكثر من مخدر للنفس سرعان ما يزول أثره بعد أن يهاجمه النعاس الحقيقى وبجهد كبير يكافح إلى أن يصل إلى سريره ومن ثم فانه يمدد ساقيه ويغط فى النوم العميق كان يشعر من خلال ذلك النوم بنفس الاحساس والشعور الذى اجتاحه يوم القطار شعور الانتقام... حتى ولو كان من نفسه.

كان يعلم بأن لشعور الرضى هذا طبعا مخربا وان كراهيته للعالم وبغضه له كان يعبر عنهما. ولو فى بعض الاوقات يحاول بقوة مقاومة هذا الشعور والخمول لكان

فى النهاية اخبر والديه كما كان يفعل كلما كان مريضا ولكن الآن وبسبب هذا المرض كان يبدو عليه إنه يحرز إرادة، فى الماضى لم يكن يراها إلا ضعفا، ولكى يوافق نفسه مع هذه الارادة كان يشعر بلذة بالتخلص من حب الذات.

وبدا له فجأة هذا السكون بعد أن قبل به كما هو، كان هذا كاف لكى يشجعه ويزيد فى يقينه بأنه كان يدرك بحرية وليس بالاكراه، وهكذا فانه لم يكتف بعدم مقاومته لهذا الخمول وبعدم اخبار والده ووالدته بل بدأ يحدثهما بشتى الوسائل، كان يتعمد أن يقرأ الموضوعات الطويلة المملة أو كان يتيه فى مواضيع لا تهمه لا من قريب أو من بعيد كل ما يهمه هو أن يقطع الوقت وبالكاد كان يشعر بأن عينيه قد غلبهما النعاس، ثم تكبر تلك الحالة عنده وتصل إلى رعشات الخمول التي تسرى فى ظهره ايذانا بالشلل الكامل فى أهم أجزاء الحركة الميكانيكية فى الجسم ويبذل مجهوداً كبيراً لكى يصل إلى فراشه ومن ثم تنمو الحالة اكثر فيلقي بجسده على ذلك الفراش الوثير ويقول لنفسه بعد ان يصل إلى تلك الحالة :

– كان يجب علي أن اقاوم... كان يجب على أن اذاكر... كان يجب علي أن اترجم... كان يجب علي أن اقرأ...

لم يكن النوم الا وسيلة... إذ انه لا يمكن لامرء ان يستمر فى النوم إلى الابد الا إذا كان ميتا... اما الغاية النهائية والمحصلة من ذلك النوم فكانت الثورة ضد الدروس ولم يتأخر لوقا عن التفتيش لايجاد طرق جديدة لبلوغها. كان فى السابق يعود إلى البيت بعد الدروس بدون حماسة يفكر فى ساعات المطالعة التى كانت تنتظره. أما الآن فقد تبدل الحال بعد أن أصبح الوضع يتطلب نزع الصفة الالزامية للمطالعة وإزالة الاهمية الكامنة فيها إذ كان يتراءى للوقا بأنه ينظر مترقبا إلى هذه الساعات وهى تقترب برغبة حية، متقدة، مثل شخص اشرف على القيام بمهمة كطابقة تماما لميوله.

كان يغادر المدرسة بعد انتهاء دروسه ويستأذن من رفاقه ويعود إلى منزله ببطء

ثم يظل وحيدا فى ساعة الغروب يرقبه ويلاحظه وهو ينحدر فى الافق إيذاناً بحلول الليل، كانت لديه فكرة بأن الناس جميعهم يخرجون من بيوتهم فى هذه الساعة وكأنهم كانوا ينتظرون هذا الليل لكي يوحوا عن أنفسهم بعد عناء النهار وشقائه وكان هو يتلذذ انه عكس هؤلاء الناس جميعا ومميزا عنهم إذ كان يعود إلى منزله فى تلك الساعة بالذات، وما ان يصل إلى الشوارع المقفرة الخالية من روادها حتى يكون الظلام قد غشى الكون بحلته السوداء فيدخل لوقا إلى شقتهم حيث يقيم.

وفى تلك الساعة تكون الشقة خالية إذا استثينا وجود العاملة التى تعمل عندهم اما والده فانه يكون مشغولا فى مكتبه، بينما تكون والدته فى زياراتها اليومية إلى اصدقائها من سيدات الحي، فيذهب إلى حجرته فيغلقها عليه ويجلس الى مكتبه، لقد تخيل فضلا عن النوم طريقة اخرى لكي لا يدرس، طريقة أطلق عليها بلغة غضبه (التمرين على اضاعة الوقت).

كان هذا التمرين عبارة عن القراءة والكتابة بصورة آلية دون انقطاع وهو يحاول أن يصبح غريبا عما يكتبه أى إنه يكتب اشياء دون معنى كان يشعر بلذة وهو يلاحظ بأن الكلمات فى حركات تقدمها وتأخرها كانت تظل غير مفهومة وخالية من كل معنى.

وأحياناً كان يقرأ بصوت مرتفع ويلاحظ بارتياح ان الصوت لم يكن يشرح الكلمات بل كان يضيف إليها معنى غير معقول كان يعلم ان فى وسعه بقليل من المجهود أن يجعل صوته غريباً عنه وهو يكرر ذلك بقراءة الكلمات بنبرات مختلفه على طريقة السلم الموسيقي.

وينتهي من هذا التمرين عادة إلى الدوار المعتاد لاعصابه، ويشعر بأن ذلك يبدأ من أسفل قدميه حتى ينتهى إلى أن يعم سائر جسده كله، فيسير إلى فراشه مترنحا ويرمى بنفسه اليه ويغمر نفسه بفيضان النعاس يغشيه فينام ساعة أو ساعتين ثم يفيق ليكشف بلذة أن الوقت قد مضى وأن المطالعة لم تعد مجدية ولن تسكنه من معرفة دروسه فى المدرسة.

تلك الدروس لم تكن مقبولة لديه لان ذلك الفصل والمعلم كانا غريبين عنه ولانه منذ البداية كان غارقاً فى جو فارغ لحقبة غير مغلقة وغير مقبولة وكان من السهل عليه أن يملأ عينيه وأذنيه بنوع من الضباب الكثيف يضع فيه صوت المعلم عندما يشرح الدرس الذى يصبح أحيانا نوع من الطلاسم السحرة التى يستعصى عليه حلها أو فك رموزها... بل انه كثيرا ما تخيل نفسه ميتا فقد حاسة الكلام يسمع اصواتا غير مفهومة ومبهمة وعلى ذلك فهو لا يريح نفسه فقط من عدم سماعها بل انه ايضا ينظر ببلاهة إلى كل ما يجري أمامه.

وفيما هو فى احدى الحالات إذ سمع صوت معلمه يقول له :

– ما نسي، هل يمكننا أن نعرف ما نفكر به ؟

ورد لوقا :

– انا ؟ لاشىء...

فعلق المعلم على قوله :

– هذا ما يبدو عليك.

كان للوقا معزة خاصة عند اساتذته إذ كان من الطلبة المتفوقين فى دراساتهم اما الآن وعلى النقيض كلية رغم ان الدراسة لم تنظم الا منذ شهر فقط ولكنه بدأه بالتقهقر الى الخلف وكان يحصُل على أقل الدرجات والعلامات الشهرية بين زملائه وكان يتساءل عن سبب سلوكه هذا الطريق فكان يلاحظ بأنه لم يكن يجد الاسباب القوية لتفسير موقفه هذا كل ما وجده نوعا من علامة الشرف الغامضة المزوجة بأنانية قاتلة تلك العلامة السلبية التى لا أساس لها وفيما هو ينتظر الجواب وسط هذه الاوضاع المعاكسة كان الوقت يمر.

الفصل الثالث

إذاً كانت محبة لوقا لوالديه لم تكن تجعله يتعلق بالحياة، التى إن جاز لنا التعبير عنها نهدمها وافناها، ولم يكن ليطالب بتحمل مشقة هدمها، إلا أن هناك أشياء اخرى كانت تبدو له حية وضرورية رغم إنه ترتب عليه ادخالها ضمن مخطط التخريب الذى كان يجرى ويتكرر يوما بعد يوم.

فمنذ نعومة أظفاره وهو صغير كان قد كرس نفسه للاشياء التى كان يملكها فأحبها بغيرة وأختص بها لوحده حتى إن اهله - مثلما يحدث فى أغلب الاحيان - حاولوا بجميع الوسائل تشجيعها وتنشيطها فاللعب التى أعطيت له فى السنتين الاولى من عمره كانت مرفقة ببعض الكلمات من الاعجاب المقصود وتحتوى على حكم ودعوة لغريزة التملك عنده :

وكم من مرة تكررت كلمة :

- انظر إلى هذه اللعبة كم هى جميلة.

تكررت كثيرا عند تقديم الالعاب الأكثر مهارة والبسيطة مثل لعبة الميكانو، وهى مجموعة من الالعاب الميكانيكية أو مسرح العرائس، ونفس الأقوال والافعال وكلمات الاعجاب والدعوة لغريزة التملك كانت تتكرر، عندما اهدى لأول مرة كتب وقصص الجنيات الصغار.

كان لوقا يحب بصورة خاصة مسرح العرائس المذكور حتى وله به وعشقه فكان الوالد يغذى المسرح باللعب الجديدة حتى أنه كان خلالها يحضر له مرة أو مرتين على الاقل لعبة أو لعبتين فى كل مرة، وقد تعود والده أن يقول له فى كل مرة جملا من عدم الاهتمام المقصود دون أن يرفع عينيه عن الجريدة التى كان منهمكا فى قراءتها :

- لقد احضرت لك بعض الاشياء التى تفرح بها.

ويرد لوقا فى لهفة على والده :

- اين هى يا بابا ؟.

ويقول له :

- إنها فى جيب معطفى.

كان لوقا يصبح فى قمة سعادته ويمتلىء بالفرح وبنفس الوقت، يخامره شعور مذل خوف وقوعه على مودة تكاد تكون غير شرعية ثم أنه يتجه بسرعة إلى مدخل الدار وفعلا يجد هديته فى جيب معطف والده المعلق على المشجب وهى ملفوفة بورق من الحرير الأحمر الجميل.

وما أن يقوم لوقا بفك تلك الورقات من الحرير بأصابعه التى فقدت القدرة على الصبر فغدت متشنجة حتى تتكشف له هدية والده وهى عبارة عن كرة أو عروسة أو بندقيه للرماية.

ويسرع لوقا إلى والده ويقبّله ثم يركض إلى غرفته ليضع اللعب الجديدة بجانب اللعب التى كان يمتلكها من قبل فى خزانته التى يحتفظ بها بلعبه ويأخذ فى رؤية ما يملك من هدايا وكأنه يراها لأول مرة.

حاول أن يلعب بمسرحه الصغير الذى اخترعه امام ديكور ذو مناظر تمثل قصر ملك أو غابة أو سجن، ولكن فيما بعد عشق جميع العرائس ليحصل على مجموعة كبيرة منها تمكنت من التغلب على ذوقه فاكتفى بترتيبها فى الخزانة كرجل بخيل يكدس المال فى جوف خزانته.

كان يتأملها وهو راكع على الارض يعدها ثم يقوم بعدها ثانية يداعبها ويلاعبها ويناجيها ثم يتأملها طويلا ويعود فيصففها، كان هذا من عاداته فى ممارسة لعبه بالعرئس.

كان يشعر بالارتياح الكبير وهو يقوم بهذه التسلية التى تغمره حتى قمة رأسه، هذا ما كان يشعر به من تأنيب الضمير الغامض، لأن عشقه لمسرح العرائس دام طويلا ولكنه فى النهاية تغلب على تلك المحبة لعرائسه ولم يعد يلعب بها لاحظ إنه لم يعد يلعب بها ولا يتأملها ومن ثم ترك الغبار يكسوها داخل دولابه، أما والده فانه لاحظ انه لم يعد يبدى اهتمامه بلعبه كسابق عهده ولذلك توقف عن اهدائه تلك الهدايا.

وبعد المسرح تعلم من الميكانو من والده وكيفية استعماله بعد أن يجلس على أرضية الغرفة وأخيراً عندما تقدم فى السن جاء دور الكتب كان يحدث له نفس التطور الفكرى فمن التسلية البريئة إلى شعور الغيرة والخمود فى التملك ومن التعلق بالشىء الى الاشمئزاز منه ولمن هذا القرف للاشياء لم يصبح قوياً لدرجة دفعه للتنازل نهائياً عن الاشياء التى لم يكن يهمه امرها بعد محبة الامتلاك العاصفة كانت تخلق بينه وبين الاشياء التى كان يحبها سابقا والتى اصبحت الآن مهملة رابطة غامضة من الغيرة والخوف ويسببها رغم كونه كفّ نهائيا عن استعمالها والتمتع بها، وحتى إنه كان أحياناً ينسى وجودها، لم يقرر أبدا اعطاءها لاحد أو إتلافها.

كان يحتفظ بهذه الاشياء وإن كانت قد تلفت أو كسرت وهكذا فان رفوف خزانته كانت ملأى بمجموعه ألبوم الصور المصغرة التى عفا عليها الزمن فأحال لونها الأول ومزق أوصالها فغدت قطع متناثرة مع علب الميكانو النصف فارغة، اما الكتب يزداد عددها دائما وبدون توقف مع مجموعة الطوابع التى كان يضيف عليها ببطء طوابع جديدة.

وفيما بعد عندما تبين والده ان ابنه قد أصبح شاباً يافعاً حدد له راتباً شهرياً كان ذلك عملا آخر من حب التملك، إذ أن لوقا كان يقبض مرتبه الصغير فى أول كل شهر أما والده فقد كان يتلقى مقابل ذلك القبلات من ابنه اعترافاً بهذا الجميل على خده ولم يمض إلا القليل حتى لاحظ لوقا بأن المال يثير فى نفسه شعور التملك

بفحوص اكثر وأقوى من الالعاب والاشياء الاخرى، احساس خال من كل فكرة للعب أو للتسلية وغير قابل لتفهم كتبه كليا.

كان فى البدء ينفق هذا المال فى شراء الحلوى والكتب ولكن فيما بعد وقد اكتشف إنه بامكانه أن يحصل على الحلوى والكتب من أهله بدون أن يصرف شيئا من الكنز الذى يمتلكه ودون أن يدرى أين ينفق نقوده التى أدخرها، كان يدخر أمواله دون أن يكون لديه ماذا يشترى أو لأى غرض يدخر نقوده، وبالحقيقة إنه لم يكن يعرف أو يحس القيمة الشرائية لهذه النقود مما يدل على إنه كان واقعا تحت نفس التأثير الغرائزى الذى جعله يجمع العرائس لتكون لديه مجموعة كبيرة من هذه العرائس، إلا أن الموضوع حينذاك كان مجموعة كبيرة من هذه العرائس، الا ان الموضوع حينذاك كان يتعلق بأشياء لها صفة وتعدد واختلاف فى الشكل والهيئة تغلب عليها الكمية.

أما الآن والموضوع يتعلق بالمال وهذا ممثل بأوراق نقدية قبيحة أو متماثلة شبيهة لم يبق إلا الذكاء الذى ينقص الهاوى لزيادة الكمية والمحافظة عليها وتنميتها وهكذا وبدون أن يدرى زلق بذوقه من الحيازة المرة إلى البخل، ولكن هذا البخل بدوره كان بريئاً وساذجاً يشبه الوقاحة لدى الأطفال الصغار الذين تدعهم أمهاتهم يركضون عاريين على شاطئ البحر.

وقادته سذاجته فى جمع المال لكى يقول لوالده إنه يريد أن يصل بمدخراته إلى مبلغ الالف جنيه، فأجابه الاب مشجعاً إياه ثم قال له :

- إذا كان ذلك ما تريد فعليك أن تضع النقود فى صندوق التوفير.

وأخذ فى شرح فوائد صندوق التوفير ومميزاته فضلا عن ان هذه الطريقة مأمونة، أضف إلى ذلك ان نقوده سوف تزداد بانتظام بدون أن يهتم لرقابه تلك الأموال كما تنبو النبتة الصغيرة.

وعند ذلك شعر لوقا بخجل لا يدرى كنهه بعد أن أصغى إلى مقترحات والده وهو

يتخذ حجة عدم وجود النقود الكافية لكى يقوم بفتح هذا الحساب فى البنك لذلك رفض عرض استلام كتيب صندوق التوفير إلا أن شعور الخجل انطفأ فى الحال تقريبا، كوميض برق وهكذا أقد القطع النقدية والقطع الفضية والأوراق تتكدس فى خزانة مكتبه بتراكم مستمر.

إن تضحيه الاغراض والمال رغم التفاعل الماضى المنسى من الشبع والقرف والخجل التى تهيأت له الآن فقط معرفة كونها مهمة وإدراك معناها، فلقد توصل بثورة جسده الفاتر إلى هذا الرفض للدروس، ولكنه كان يشعر بالندم لعدم تمكنه من الوصول إلى تطليق الملكية دون أن يذوق الاضطرابات والحيرة والالم التى توحى له حرماناً قاسياً وغير محق ظاهريا.

ومع ذلك فإنه كان قد تعشق كتبه ومجموعة طوابعه ولوازم الرياضة رغم ان كل جزء من تلك الاشياء الصغيرة التى أودعها الدرج كانت تمثل له تضحية شىء ما بامكانه شرائه.

هذه الأشياء وهذا المال لم يكن مجرد اغراض ومال فحسب بل كانت أيضا خيوط حية وراسخة من النسيج الذى تربى عليه ولو كانت هذه الأشياء ميتة لهجره الحب الذى كان فى الماضى قد أحياها، كما هى حالة والديه بشكل ما ولكن هدمها وخربها بلا فائدة ولكن العكس هو الصحيح، وقاعدة هذه اللعبة المرة للعصيان لا تقبل استنثاء ما.

وبعد ان أجل هذه العملية عدة مرات، قرر فى أحد الأيام تنفيذها نهائيا، فلقد كان بين رفاقه طالب رزين تلوح على قسماته ملامح العلم والكمال كأنه طالب فى المرحلة الثانوية قدر لثقافته أن تدوم طيلة الحياة. كان ذلك الطالب يدعى بولى أقوى طالب فى الفصل من ناحية التفوق المدرسى والعلمى، وكان دائما حاضر البديهة فى كل الدروس وكل المواد، وهذه المقدرة والقوة بالمعرفة كانت تنبىء عن نفسها بسهولة وبدون أى مجهود ثم تبدو غامضة للوقا، كما لو كان نتيجة لبعض عمليات الشعوذة لأنها كانت تختلف عن ذهنه الذى ينسىء ويخطىء.

وفى يوم من الأيام دعاه لوقا لزيارته بعد الظهر فى منزله فرد عليه بولى :

- يجب أن تعلم إنه لايمكنك أن تعتمد على أحد فى تأدية واجبك المدرسى وحاول أن تعتمد على نفسك يا عزيزى لوقا.

وأجاب لوقا بعد أن تخلى عن كتمانه :

- إن الموضوع لايتعلق بواجباتى المدرسية على الاطلاق.

وذهب إليه بولى حسب اتفاقهما وهو يظن إن لوقا انما يخدعه وسوف يفاجئه بكراسة واجباته، وبعد كلمات الترحيب الملحة قال له لوقا :

- أريد أن أهديك مجموعة طوابع خاصة بى.

وما أن تم لوقا هذه الكلمات حتى ذهب إلى الخارج وعاد وهو يحمل مجموعة من الطوابع داخل أربعة كراسات لحفظ الطوابع مجلدة تجليدا أنيقاً فى قماش أحمر إلا أنه لم يقبلها من لوقا وقال له :

- لَم تعطينى هذه الطوابع ونحن لم نكن أصدقاء وأنا لم أكن أعرفك من قبل ؟

فأجاب لوقا بمنتهى الهدوء :

- أعتقد بأنه ينبغى على أن أغادر البلاد لفترة ومن ثم سوف أحتاج التصرف إلى مثل هذه الاشياء التى أملكها وأنت خير من استطيع أن أهديها إليه لانك الوحيد الذى سوف يمكنه أن يحافظ عليها.

وراح بولى يقلب هذه الطوابع وهو غير مصدق أن تكون ملكه وتملكه الاغراء ولكنه فى نفس الوقت كان يحاول أن يظهر إنه لايهتم بمثل هذه الأشياء إلا أن رغبته الملحة كانت تسبقه للافصاح عن مكنون رغبته.

وما لبث أن قال للوقا :

- سأعطيك شيئا مقابل تلك المجموعة من الطوابع ولكنه بالتأكيد لايساوى قيمتها... ولكنه على كل حال شىء بسيط... ماذا تريد منى؟

أجاب لوقا :

- أنا لا أريد شيئاً.

ولكى يغير مجرى الحديث راح يقلب صفحات الألبوم متظاهراً برغبته فى الآدلال على الطوابع النادرة التى يحتوى عليها ألبومه ولكنه فى حقيقه الأمر كان يريد أن يتأكد فيما إذا كان فراقها غير مؤلم له.

ولاحظ لوقا على نفسه وهو يقلب صفحات كراسة الطوابع إنه يشعر بالألم وهو يختلف كثيراً عن الألم الذى كان ينتظره، لقد كان من المنتظر أن يتألم بسبب البخل وقد أكتشف بجانب ذلك إنه كان يتألم على نفسه ومشاركة لها فى أحزانها، لقد كان بالفعل عنيفا ضد نفسه ولم يكن يستطيع الاستغناء عن التفكير كما لو كانت شخصيته قد انقسمت إلى قسمين :

القسم الأول شقى متروك وملقى على الارض يدافع عنه بضعف ضد القسم الثانى الذى وقف بالمرصاد لقسمه الأول وراح يكيل له سيلا من الآلام.

قال لوقا وهو يغلق كراسة الطوابع :

- هل تريدها أم لا ؟

وقال بولى بكل حماس :

- نعم بكل تأكيد.

ورد عليه لوقا :

- أنتظر إذن حتى أقوم بلفها لك.

وفيما هو يغادر الغرفة تناول جريدة من فوق أحد الرفوف، وفكر بأنه عندما يعود إلى غرفته سيعلن إلى بولى انه انما كان يمزح معه فقط، وشعر بالالم السحيق إذا تنازل عن هذه المجموعة وتخلص منها فى نفسه:

- ماذا علي إذا احتفظت بهذه المجموعة وماذا يضيرنى.

ولم يتردد بعد أن ظهر حنين خفى لمجموعة طوابعه.

تناول الجريدة وعاد إلى الغرفة، وكان بولى يتطلع إلى المجموعة بأعجاب ولكن لدى دخول لوقا أغلق كراسة الطوابع بسرعة كما لو اعتقد فيما إذا ظهر إنه معجب بتلك المجموعة فان لوقا سوف يعرض عن إهدائه تلك المجموعة.

وسأله لوقا :

- ولكن أليس لديك مجموعة من الطوابع ؟

أجاب بولى بحذر :

- نعم ولكنها ليست مكتمله إذ ينقصها الكثير من هذه المجموعة.

وحصل بولى على مجموعة طوابع لوقا وهو غير مصدق إنه حصل عليها وما أن غاب بولى حتى تساءل لوقا عن كيفية التخلص من كتبه ؟ لقد كان لديه عددا لايستهان به من الكتب التى كان يحبها أكثر من الطوابع بدرجات كانت بغالبيتها من كتب المغامرات وأيضا قصص بوليسية وتاريخية، وكان قد شعر نحوها بنوعين مختلفين من الاحساسات.

لقد أحب كل واحد منهما على حدة بسبب ما كان يحتويه وبنفس الوقت كان قد أحس بمحبتها كلها غيرة لكتبه باعتبارها أشياء يمكن تملكها بمحبة، كانت تستمد من البخل الكثير من أوصافها إذ أنها كانت تولد له لذة حيرى اكثر من أى شىء كان يملكه.

لذلك وفى بعض الأحيان كانت قد واتته الرغبة المتسلطة لاملاء رفوف مكتبه الثلاثة ولما لم تكن القصص تكفى لاملائها أضاف إليها الكتب التى أهديت له بمناسبة الأعياد وكتبه المدرسية. هذه الكتب المختلفة كانت بمجموعها قد وصلت الى رقم لاكسور فيه. لقد قام بمراقبة هذا الرقم ومعرفة عما إذا صحيحا فكان يعيد الكتب إلى الارض، ويبدأ فى ترتيبها وصفها مبتدئاً من القطع الكبير ومتدرجا نحو القطع الصغير، فبلغ العدد ثلاثمائة كتاب.

وإذا كان من السهل على لوقا أن يتخلص من كراسات الطوابع الخاص به وتلك التى كان ترتيبها لايشغل حيزاً كبيراً من المكان، فان الصعوبة كانت فى كيفية تفريغ المكتبة دون أن ينتبه والده إلى ذلك، وفكر بكيفية العمل لكى يلاحظوا ان مكان الكتب شاغرا وبعد أن فكر طويلا قرر أن يلجأ إلى حيلة تسمح له بتخريب مكتبه دون إيقاظ الشك حول سبب ذلك ودون أعتراض والديه.

وفى أحد الايام ذهب إلى أمه فقال لها :

- ماما، أريد أن أبيع جميع كتبى.

فقالت الام بدهشة :

- تبيع جميع الكتب ؟ لماذا ؟

- لقد قرأتها عدة مرات وأريد أن أبيعها واشترى بقيمتها اسطوانات.

كان هذا النوع من الحيلة مطلوباً فى هذه المناسبات، لم يكن والده ليرضى بذلك وان هذه الاعمال لم تكن لمصلحة شىء جديد يمكن شرائه وإقتنائه عوضا عن المقتنى السابق الذى تخلص منه، إذ أن الملكية بنظرهم لن تقدر أن تخدم إلا ملكية جديدة، وفضلا عن ذلك كان لوقا يعلم بأن والدته تحب الموسيقى ولا يداخلها السرور إلا من الرغبة التى يطالب بتحقيقه.

ولكنها قالت له بعد فترة:

- قيمة الكتب لاتكفى...

خاف لوقا من فكرة قيام والدته بشراء مجموعة الاسطوانات نظرا لمحبتها للموسيقى بدون أن تضحى بالكتب، لقد خاف من ذلك وخشي عرض الفكرة لشرائه من ماله الخاص ورغم تأكده بأن كرما كهذه أو أى نوع من الكرم لم يكن له وجود فى عداد مبادئها التربوية.

لذلك أضاف بعجلة :

- سأضيف إليها ما اقتصدته فلو جمعنا قيمة مبيعات الكتب مع أموالى المقتصدة لامكننا ان ندفع الاقساط الاولية للحاكي فضلا عن شراء بعض الاسطوانات.

وما أن حصل لوقا على موافقة والدته حتى أحضر تاجر الكتب الذى قام بفحصها الواحد تلو الآخر وخلال هذا الفحص والتدقيق تساءل لوقا مجددا كما فعل عندما أهدى مجموعة طوابعه إلى بولى :

هل تكفى مفارقة كتبى العزيزة.

ولاحظ حينذاك بأن درجة آلامه قد هبطت كثيرا وفكرة اللعب المسلية وثنائية ساعداه على التضحية ولم يكن تاجر الكتب بدوره أقل اهتماما من بولى إلا أنه كان يحاول تقليل قيمة الكتب والحط من قدرها وهو يكرر قوله إنها كتب قديمة إلا أن لوقا راح يسد عليه الباب بطريقة محنكة حتى اتفقوا وقال صاحب الكتب :

- ليست هذه تجارة بالغة الاهمية... وعلى كل يمكننى أن اعطيك سعر الجملة.

سأله لوقا :

- كم هو السعر؟

قال لوقا :

- إنه لايساوى شيئا أبيعك الكتب بضعفه.

أجاب التاجر الشره :

- لا... أن هذا سعر مرتفع.

تردد لوقا وأتته فكرة عرض بيع الكتب جملة مع اللعب ومستلزمات الرياضة على التاجر وهكذا سيمكنه أن يتخلص دفعة واحدة من جميع ما كان يملكه. فقال له :

- اسمع، سأتنازل لك عن أشياء أخرى لقاء المبلغ الذى حددته لك ولننهى هذه العملية ما رأيك ؟

وقال التاجر :

- ما هى تلك الأشياء ؟

توجه لوقا إلى عرفته وفتح درج مكتبه وأخرج منه كرة كبيرة وقفازان جديدان للملاكمة لم يستعملا بعد ومركب شراعى جديد كبير ومسرح العرائس الذى يحبه.

وقال تاجر الكتب :

- لست بائع اشياء مستعملة.

وبالرغم من إنه قال هذه الكلمة إلا أن الجشع المسيطر على التجار قد ظهر عليه من جراء هذه الصفقة.

وقال لوقا :

- إن هذه الكرة فقط كلفتنى قيمتها ماتعرضه أنت علىَّ فى كل هذه الاشياء.

وأخيرا انتهى تاجر الكتب إلى القبول ودفع الثمن المتفق عليه وفى اليوم نفسه

أرسل شخصاً آخر ومعه صندوق وضع فيه الكتب والاغراض الأخرى وذهب بها، أما لوقا فقد ظل وحيدا ينظر إلى مكتبه الفارغة، لقد حقق ما قاله سابقا لبولى بشأن التوطئة لسفر بعيد طويل وهذا هو ما فكر به بعد أن باع كل ما كان يملكه.

ولكن رغم ذلك شعر بالفرح أمام منظر الفراغ فى غرفته لم يكن فرح من بيع أغراضه قبل السفر ولكنه أحس بسرور ذلك الشعور الذى يحس به المسافر عندما يصل إلى أرض خالية وغير مأهولة حيث يعلم أنه ليس هناك من ينتظره.

وفى ذلك اليوم اشتغل اقل من العادة، كانت ذاكرته تعود به إلى الكتب إلى مجموعة الطوابع، إلى لوازم الرياضة، وكان يشعر بالرضى العجيب إنه رضى يكاد يكون لذة جسدية.

كان يتخيل ان بولي فكر به وقال عنه بأنه مغفل غبى وإن صاحب المكتبة قد هنأ نفسه بهذه الصفقة المربحة التى قام بها وكان مسرورا لأن هذين الشخصين قد أعتقدا بأنهما تمكن منه. وبنفس الوقت كان يشعر بإحساس يدرى كنهه من الخفة والعزاء كشخص حمل لمدة طويلة حملا ثقيلا وشعر فجأة بأن هذا الحمل قد ألقى عن كاهله.

وراودته فكرة المال، كان يجب أن يستغنى عنه وأن يتخلص منه وبنفس الوقت يبرر بشكل ما عدم شرائه الاسطوانات، فاختار وقت الغذاء ليعلن بنبرة من يحبس دموعه وبشكل من الهدوء والقلق :

– يجب أن أخبركم بشى... ولكن تعهدوا انكم لن تحزنوا.

فنظر إليه والده بقلق وقال له :

– ماذا حدث ؟

ولما رأى القلق باديا على محياهما قال :

– هذا الصباح كنت راكبا الاتوبيس وسرقت منى حافظة نقودى، لا أدرى اسرقت أم أننى فقدتها، المهم أننى لم أعثر لها على أثر، لقد كان فيها كل ما أملكه من مال وأيضا ذلك المال الذى كنت أدخره لشراء مجموعة الاسطوانات والحاكى.

وانهالت عليه الاستفسارات من والديه:

– كيف ؟ ولماذا ؟ وأين ؟

وخلال مناقشته مع والداه أشفقا على حالته الصحية لفقدانه المال وقال له والده :

– أنا على استعداد لدفع قيمة المبلغ المسروق ؟

أما الوالدة فقد تعارض تلك الفكرة وقد تمسكت بحجة واهية تخفى تحتها البخل السامر فى اعماقها وهي إن هذه الخسارة الفادحة :

– سوف تكون درساً له فى المستقبل.

وكان لوقا يحس فى باطنه بأنه لو أصبح رأي الاب المسيطر مغلوبا على امره أمام رأى الوالدة لكان لديه أضعاف المبلغ الذى كان بحوزته، بل سيكون ملزما بشراء حاكى ويكون إذ ذاك عرضة لشعور بالمحبة لغرض جديد مغر وساحر، وستكون مجازفته، شديدة، لذلك تابع المناقشة بقلق زائد، وعندما لم يبق لديه أمل إلا فى لين والده وسلبيته وفعلا ففى النهاية تمكنت والدته من انتصار رأيها مع التحفظ فيما لو كانت تلك العلامات المدرسية التى يحصل عليها لوقا فى المدرسة فى الفصل الأول جيدة فأن أهله سيقدمون له الحاكى والاسطوانات هدية منهم.

أما لوقا وهو متقن بأن علاماته ستكون مخجلة، فقد ابتسم مطمئنا.

الفصل الرابع

سأل لوقا نفسه ذات يوم لماذا أفعل ذلك ؟ فجاءه الجواب ذات يوم بطريق الصدفة أثر حادث بسيط.

ففى أحد الأيام أنتهت الدرس قبل الوقت المحدد بساعتين لمرض طارئ ألم أحد المدرسين فخرج الطلبة ولوقا معهم، ولما صار فى الشارع تقدم منه أحد رفاقه وهو يحمل معه تحت ابطه، كان هذا الولد غير محبوبا من لوقا وخصوصا بسبب هيئته غير المنتظمة المزرية، وأيضا كان كثير السمنة متردد الأنفاس له خط أسود رفيع يظلل شفته العليا وخديه وكانت تقاطيعه التى غرقت فى الشحم تلقى شكلا غير مريحا عليه.

قال له وهو يلهث وقد بدت على ملامحه الجدية :

- أتريد أن تلعب معنا، نحن فريقان سنلعب ولكن ينقصنا حارس مرمى.

كان لوقا يحب تلك اللعبة كثيراً... ولكنه لايجيدها... ولم تعجبه تلك الدعوة من ذلك الفتى السمين، وكان أول ما راوده هو القبول ولكن ممانعة خفية جعلته يغير رأيه فقال :

- آسف يجب أن اعود إلى البيت.. ربما مرة أخرى.

ولم يضيع الفتى السمين وقته فى البحث عن آخر إذ إنه سرعان ما وجد بغيته وصاح :

- ماريو... هل تريد اللعب معنا؟

رأى لوقا ذلك الأخير يقف ويتكلم مع ماريو ثم تحرك اللاعبون وألتفوا جميعاً

حول الولدين واتجهوا إلى مكان اللعب، وانتقلت الكرة منه إليهم وسرعان ما انطلقت فى الهواء وشهقت صرخات اللاعبون وهم يجرون وراءها وبدأت المباراة حامية الوطيس.

كان الشارع المؤدى إلى المدرسة طويلاً ومستقيما وخاليا من المارة تحيط به البنايات وابتعد الأولاد وتفرقوا وسط صف طويل من النوافذ المطلة على الاسفلت اللامع وهم يتخاطفون الكرة فى يوم صاف تنيره شمس يوم دافئ. أما لوقا فقد يرقب هو وبعض من يقع عليه اللعب هؤلاء الأولاد وهم يثرثرون ويقفزون بمرح وسعادة وراء تلك الكرة وكان لوقا ينظر إليهم برضاء مرير وهم يبتعدون ورغم أن هذا الرضى المر لم يكن جديدا عليه فانه تمكن بجهد مرير أن يتذكر بأية مناسبة كان قد شعر به سابقا. وأخيرا تذكر، فلقد كان هذا الرضى هو الذى أيقظ فيه الشعور بهدم قضية دروسه وتنحيه المطالعة اللازمة للاستذكار.

وقد أثار هذا الاكتشاف فى مخيلته أفكارا غزيرة سريعة متوهجة جعلته يغرق بالتفكير وهو ينظر باتجاه لاعبى الكرة، وفجأة طرأت على ذهنه فكرة وخامره شعور بأن اللذين يبتعدون عنه ليسوا رفاقه بل طفولته التى انفصلت عنه، كان الأولاد يلعبون على الأرض الخضراء بينما هو يفكر بالابتعاد عن لعبهم إلى الابد، ولكنه قد أدرك السبب الذى أهاب به وهو يرى رفاقه يبتعدون، ويصغر حجمهم تدريجا فى نهاية الشارع الخالى.

وأخيرا قذفوا الكرة فى شارع جانبى وأختفوا، عند ذاك توجه إلى منزله بعد أن قام بالتغلب على أفكاره المخدرة.

وفى الايام التالية تراءى له بأن الاكتشاف الذى أحس به وهو يقارن بين رفضه اللعب بالكرة ورفضه الدروس كان قد توطد وأصبح عميق الغور، ولم تكن الفكرة دقيقة التحديد بل كانت اتجاها منحه الشعور النهائى بالقرف والثورة المبعثرة دون ترتيب. كان يعتقد بأنه يبغض الدروس فقط أما الآن فقد تأكد له بعد رفضه دعوى

الولد السكين بأنه كان يبغض أشياء أخرى. ولكن ما هى هذه الاشياء ؟ وبعد أن فكر مليا اكتشف بدهشة بأن عداوته لم تكن موجهة ضد مظهر من مظاهر الحياة فقط أو أكثر، بل ضد مظاهر الحياة كلها.

إذن من المعقول محاولة العثور على موقف طبيعى مفقود انطلاقا من العصيان وفق تصميم منطقى رفيع ومنذ ذلك الوقت كان يقوم بالعصيان وعدم الطاعة فى الحقل الدراسى باعتباره القسم الاكبر ثقلا والاكثر بطلانا فى حياته.

أما الآن وبعد حادثة اللعب فقد اكتشف إنه من الممكن توسيع نطاق هذا العصيان حتى يشمل ميادين أخرى ، تسكنه من تطبيقه على أشياء أخرى لم يفقه لها وجودا ولم تخطر بباله قبل ذلك الوقت، مثالا لذلك تطبيقه على شعور المحبة وعلى ما يشغله ويقلق فكرة : الحياة.

وفى يوم من الأيام خرج لوقا من منزله وهو يحمل فى جيبه بعض النقود... كان ذلك اليوم يوم سكوت عاصفة شديدة استمرت لعدة أيام خلت، كانت السماء لاتزال داكنة بلون الغبار الأسود كأن زرقة السماء قد تبدلت الى حلة رمادية بعض ، كان لوقا يسير وهو ينظر الى السماء وأتجه إلى الحديقة القريبة من منزلهم، إنه كان يعلم إن الحديقة فى ذلك الوقت خالية من الناس وبعد أن أجتاز البوابة إلى الداخل كان يعرف أين سيذهب إلى مكان يرتبط فى ذهنه من أيام طفولته، كان المكان المقصود شبه دائرة تحيط بأطرافه الثلاثة أشجار كبيرة متشابكة يقوم فى الطرف الرابع منه حائط كانت تمتد ورائه حديقة حيوان.

وغالبا ما كانت مربيات لوقا يحضرنه عندما كان صغيرا للنزهة فى هذا المكان... وكان لوقا يتذكر إنه كثيرا ما تسلق أحد النوافذ المطلة على تلك الحديقة محاولا النظر إلى فنائها ومحاولا أن يكشف معالم تلك الغابة التى تختفى ورائها.

وسمع فى يوم من الأيام حديثا يدور فى البيت بين الخادم والمربية عن جريمة

قتل فيها شاب دون أن يتمكن من معرفة مكان دفنه ودون أن يعثر على جثته ولكن ثيابه الملطخة بالدماء والمكان الذى وجدت فيه هذه الثياب كانت قد خلقت افتراضا بأن الجثة قد دفنت فى أحد حدائق المدينة فأنصب لوقا إلى الحديث بين امرأتين من المربيات وأخيرا سأل:

- لماذا قتلوه ؟

- لانه كان جميلاً ولطيفاً.

والآن وهو يتجه نحو هذه الدائرة عادت إليه هذه الذكرى الغابرة ولكن بهيئة جديدة كان يعرف الآن بأن احدا لم يدفن فى ذلك المكان، ولكن هذا المكان طبع فى مخيلته ظل المكان الملائم لدفن ميت جديد.

وكان يسير وحيدا وقد عصفت فى ذهنه خواطر القبور والأموات ودفن دراهمه التى اثقلت جيبه وخلال صمت مطبق وموحش يوحى بسكينة القبور مزق أذيال السكون زقزقة عصفور أسود كبير كان يقفز هنا وهنا ولكنه أفرد جناحيه للريح عندما شعر باقتراب تلك الخطوات منه ثم غاب متواريا خلف حجاب من الاغصان والأوراق الكثيفة، وهو يحس بشعور الحرية يفعم قلبه ويفكر بأن من المستحسن أن يتوغل فى الغابة ويعمل وان كان لهدم بالذات والعمل هو حقيقة إجراء أفعال وفق الأفكار وبموجب الضرورة.

الفصل الخامس

أبتداء من ذلك اليوم ظهر للوقا إنه وقع فى بحر من الخمول المميت، كان جسده قد أضمحل وضعف من الاعمال الإرادية وغير الإرادية التى كان يقدم عليها، كان يستجمع قواه لكى يأتى بمجهود نهائى قاطع، وكان ينام أغلب الأحيان مهملا وظائفه المدرسية ويزيد مدة النوم هذا يوما بعد يوم، ثم يذهب إلى المدرسة فيجلس فى الفصل مشتت الأفكار يستمع إلى شرح أساتذته فيرى أن ذلك الكلام إنما يدور فى حلقه مفرغة من الهواء ويتردد إلى ما لا نهاية.

وأحيانا فيما هو يدرس كان يجول بنظره عبر النافذه فيلاحظ الغيوم وهى تتجمع استعدادا لهطول المطر، ثم إنه كان يلاحظ بعد ذلك تلك المطر الشديد على زجاج النافذة بصمت وهدوء.

كانت السماء بحر كانها تلك إنما تشبه الثكالي الذين يتدبون ويبكون بعبرات ممزوجة من الألم الصامت الحزين أحيانا والألم الغاضب المعبر عن غضبه بالدموع الغزيرة أحيانا أخرى، لذلك فقد أحب لوقا هذا المنظر الحزين وأخذ يترقبه بين الحين والحين، كان يحب أن يتأخر فوق مكتبه أمام منظر الزجاج المخطط بقطرات المطر لم يكن يقرأ ولا يكتب إنما يظل هكذا ينظر إلى أن يحل الظلام حتى يشمل المرئيات وعند ذلك الحد يقوم لوقا من مكتبه ويذهب إلى سريره وما يلبث أن يغط فى النوم بدون أن يكمل كتابه الذى كان فى يده وتبقى هكذا ناقصة.

إنه الآن يسعى إلى تحقيق مخططة الذى يسعى إليه... الموت... ولكن ليس أى نوع من الموت، إنه يريد الموت الطبيعى، بصورة غير مباشرة إنه يمكنه أن يقلل من الطعام والقضاء على شدة نهمه وشراهته التى أشتهر بها وسعى إلى التخلص من ذلك كما تخلص من أشياء كثيرة قبلها وكان يتعلق بها.

ويدأ لوقا فى تنفيذه فكرته بحركة عادية حتى إنه لم يكن يلمس الأطباق العادية ولم يكن يتذوق الأطباق التى أحبها، ابتدأ أولا فى تخفيض الأطباق العادية إلى نصفها ثم إلى ربعها، وكان يترك المائدة قبل أن يشبع مع إحساسه بالجوع ولكن هذا الاحساس كان مؤقتا ويختفى بسرعة ويتلاشى إلى أن يحين المساء حيث يعاوده الألم من جديد فيحاول التغلب عليه بالنوم، فيبدأ بمحاولة النوم ليتمكن من تهدئة معدته.

كان يشعر إنه كلما قلل من الأكل فإنه يخطو إلى لفظ النفس الاخير بسهولة ولكى يموت عليه أن يتبع قواعد الموت التى تشبه قواعد الحياة أحيانا أما إذا رغب الحياة فعليه أن يعترف بمحبة الدروس والمطالعة ومحبة الأهل وجمع المال والتعلق بالأشياء وتناول الطعام، أما إذا جنح للموت فعليه أن يأكل وأن يتخلى عن الأشياء والناس ويلوذ بالنوم الطويل.

ولاحظ لوقا إن أهله لم يلاحظوا ذلك الانقلاب الذى أحدثه وتوقعه على شهيته أو إنهم لاحظوا قلة شهيته ولم يعلقوا عليها كبير الأثر، ولم يهتموا لذلك أى اهتمام لأنهم كانوا يعرفون أنه كثير النزوات ومنها إنه قليل الطعام.

امرأة واحدة فقط أحست ذلك وهى والدته فقالت له :

– لماذا لا تأكل ؟ إن جسمك فى مثل هذه المرحلة يتطلب كثيرا من الطعام وإن لم تكن جائعا فأجبر نفسك على الأكل والا فكيف سوف تقبل على المذاكرة.

وفهم لوقا إن عدم الأكل هو نوعا من العصيان وعدم الطاعة، عصيان شديد الخطر له صيغة جوهرية فى قطع السلطة العائلية. إذ أن والده ووالدته وجدا حوله بصورة خاصة ليطعماه ويجعلاه يأكل. أن الطبيعة هكذا...

وأحس لوقا انه قد وصل إلى آخر حد من حدود العصيان فى جو ضعفت فيه كمية الأوكسجين فأصبحت فكرته صعبة وخطيرة وكان والداه يريد انه أن يأكل ليعيش

ويقوى أما هو فقد كان ثائرا بعقلية لم يكن يريد أن يصوم ويموت، وبهذه الفكرة التى استحوذت عليه لم يكن ليكتب له النجاح ليعرف مدى القوة التى تدفعه وإلى أين يمكنها أن توصله لأن الموت لم يظهر له كهدف يرمى إلى تحقيقه أو كفالة ينشدها رغم ان كل فعل من أفعاله كان يهدف إلى إثارته، وسعيه وراء الموت سعيا حثيثاً.

وأوقعه والده فى يوم من الأيام فى مأزق حرج، لم يكن إثارة نقطة الضعف فى أكله غير الاعتيادى، أو تحريض شهيته المكتومة، بل إثارة إحساس كان يجهل إنه يكتمه، فلقد مضت مدة وهو يقلل الطعام التى يتناولها من ناحية الكمية غير إنه لم يكن يبدو على أهله أى اهتمام بشأن فقدان شهيته ففى صباح أحد الأيام رأى لوقا لفافة بيضاء بجانب والده على مائدة الطعام، وعند إنتهاء الطعام رأى والده يأخذ اللفة ثم يحل رباطها وظهر نوع من الحلوى كان لوقا يفضله فى الأيام السابقة على عصيانه وقال الوالد :

- كنت ماراً أمام بائع الحلوى فأشتريت هذه... يبدو أنها لذيذه.فقالت الوالدة.

- هل أشتريتها لاجلى... أنا لا أحب الحلوى.

أجاب :

- لقد أشتريتها فى الحقيقة لأجل لوقا الذى كان يحب هذه الحلوى.

ثم دفع اللفة إلى لوقا بعد أن أنتهى من كلامه.

وأجاب لوقا بعد أن أخفض عينه :

- أنا لم أعد جائعا يا أبى.

فدهش والده وقال :

- يالله.... أنت لم تشبع يا ولدى بعد فكل قليلا من الحلوى.

كانت كلماته ممزوجة بنوع من الألم الحقيقى وهو يقول ذلك غير أن لوقا فسره على انه مكر مقنع بنوع من الذكاء وقال لوالده :

- لقد قلت لكم الحقيقة إننى لم أعد جائعا.

- هيا... هيا... كل...

وقالت والدته :

- دعه وشأنه، إذا لم يكن جائعاً الآن فسوف يأكلها فى المساء.

وشعر لوقا إن والده عندما كان يرجوه أن يأكل على تلك الصورة كان يقول له يجب أن تأكل لتعيش، ثم خامره شعور غريب ملئ بالمحبة لوالده وجياش بالشفقة على نفسه، فكر بسره ترى هل أمكن لوالده أن يكتشف إنه يتكلف ذلك العصيان.

وهاجمت لوقا غواية عنيفة تغريه على قبوله الحلوى وتناول الطعام وبالتالى قبول الحياة والعيش. ولكنه شعر بنفس الوقت إن هذا القبول سيكون سببا تافها لاستعادة الحياة من أكلة تافهة لقطعة صغيرة من الحلوى سوغها له حنان أبوه وجاءت متأخرة حيث لم يسكنه القبول بها لأنها كانت تعز عليه أن هدم دروسه وتخلص من الاشياء التى كان يحبها ولذلك أشاح بوجهه عن الطبق الملؤ بالحلوى وهو يصر على اسنانه.

- أنت إذن تصر على رفضك أليس كذلك ؟

- لست جائعا... لست جائعا...

وأطرق برأسه لايبدى حراكا ولاينبس ببنت شفة.

وساد عليهم صمت مطبق وسكينة عمياء بكماء.

- ليكن ما تريد...

قالها والده دون أن يظهر على وجهه أى آثر من آثار الرفض الذى أمضه ثم قال:

- لقد أشتريتها لك وسوف اضعها على الرف فكل منها متى شئت الأكل. وداعب خده بيده بلطف وهو يبتسم فى وجهه.

شعر لوقا عندها بقشعريرة تسرى فى أوصاله وتهز بدنه من ذلك الحنان الأبوى.

لقد ترك هذا الموقف شعورا مملؤا بأحاسيس السعادة العميقة، التى أدخلت فى روعه إنه لم يكن مرتبطا بالأشياء التى لم يتخلص منها ، فقط، بل إنه مرتبط بمحبة البنوة التى أعتقد أنه قد قام بتحطيمها إلى الابد.

ومنذ ذلك اليوم إزدادت رغبته بفقدان الحياة وعدم العيش، وتأججت هذه الرغبة فى كيانه فألبت إرادته وأذكت عزيمته.

الفصل السادس

حملت الأنباء القادمة من منزل أقارب لوقا نبأ مرض أحدى شقيقات والدته، وإبعادا للضجيج من حول المريضة، تم الاتفاق بين العائلتين على أن يقضى اولاد المريضة وهم بنتان وطفل فى الثالثة من عمره نهارهم عند أسرة لوقا تصحبهم مربيتهم، وتم الاتفاق على ذلك ونفذ هذا القرار فعلا.

كانت المربية فى الخامسة والثلاثين من عمرها، لم تكن ذات إغراء وفتنة ولكنها كانت ذات نشاط وحيوية دائمين رغم صحتها الضعيفة، لم تكن راضية بمهنتها كمربية أطفال ورغم ذلك كانت تقوم بمهمتها بحماسة منقطعة النظير، فتلعب مع تلاميذها الثلاث كأنها طفلة صغيرة، كانت تلهو مع هذا الولد وتختلق اللعب مع البنتين، هذه التفاهة مع نوع من الشهوانية الظاهرة فى التعب المسيطر على عينيها وفى جمال يديها وكانت دائمة الضحك.

وافردت أسرة لوقا لتلك المربية غرفة هى والأولاد الصغار وهى الغرفة الملاصقة لغرفة لوقا، وهكذا منعت الضجة الصادرة من تلك الغرفة لوقا من الخمول والمطالعة نهائيا، كانت المربية تأخذ الأولاد إلى الحديقة العامة للتنزه وتعود فى الساعات الأولى بعد الظهر، لتغلق حجرة الاستقبال عليها وعلى الشياطين الصغار وتبدأ الضجة والصخب بدون إنقطاع حتى المساء.

كان لوقا يسمع من مكتبه وقد أثقل الخمول رأسه وهيمن على اعصابه الصراخ والجلبة وركض الأطفال من الغرفة المجاورة طيلة نهارهم، كما يسمع صراخ المربية وراءهم وتلك الحيوية التى لا تنضب فى صوتها مما يجعله يعتقد أن أوان الراحة قد حان ومن حين إلى آخر كانت الضجة تبلغ أوجها فتصم الآذان أو عندما يسمع صوت المربية تأمر أحد الأطفال بالكف عن أحداث الضوضاء.

كان الأولاد من خلال طيشهم وعربدتهم يحبون بالطبع ذلك الضجيج المنبعث من لعبهم وكانت المربية بدورها تقابل هذه العربدة بقابلية مخيلتها وبحيوية طبعها، وفى بعض الأحيان يصل الضجيج إلى ذروته عندما تفتح المربية الباب الخاص بغرفة لوقا قليلا وتطل برأسها وهى تسأل بخبث ودهاء فيما إذا كان الأولاد يزعجونه ويقلقون راحته، وبطبيعة الحال كان لوقا يدرك إن سؤالها ليس فى محله الصحيح، فيجيب دون أن يستدير إليها:

- لابأس إذا كان ذلك يرضى الصغار.

وفى حقيقة الأمر أنه كان راضياً بتلك الضوضاء التى تشغله عن مطالعة دروسه لكى يتخذ من تلك الضوضاء ذريعة له لعدم القيام بدروسه واستذكارها، وفى بعض الأحيان كانت تدعوه رغبة ملحة لمشاركة الأولاد بلبعهم المتخلف عن لهوه المفجع المضر، فيترك مكتبه وحجرته ويخرج إلى الخارج ليرى إن المقاعد قد قلبت رأسا على عقب والمربية تدرب على الأرض بيدها ورجليها وقد امتطى ظهرها طفل فكأنها فرس هيجاء يعتلى صهوتها فارس صنديد، ويقف لوقا وهو يتطلع إلى ذلك المشهد ولكنهم يتجاهلون وجوده إلا أنه أحيانا تسأله المربية كما هى العادة عما إذا كان هناك شيئا ؟

فيجيب لوقا كما هى العادة أيضا :

- لا... اكملوا لعبكم... لقد جئت إلى هنا لكى ارتاح قليلا من المذاكرة.

ولكن المربية تكون فى شغل عن إجابته إذ تكون منتهكة على أشدها إلى الأطفال.

كان لوقا فى شغفه بمراقبة الأطفال يشعر بالعطف نحو تلك المرأة المغفلة، إذ بدت له طيبة بسيطة تختلف عن والدته المعتدة بنظرياتها التربوية الصلبة والتى لم يكن لتنزل إلى هذا المستوى فتلعب مع الأطفال.

وكان مساء... ففى أحد الأيام داخله شعور غريب من نوعه مختلف عن شعور الميل لتلك المربية الساذجة إذ بينما هو ينظر إليها ذات يوم وهى تنتقل من غرفة إلى أخرى كالدابة والطفل راكبا على ظهرها، حانت منه التفاتة إليها فرآها تنظر إليه بتلك النظرات البوهيمية الشهوانية التى تحمل فى طياتها المعانى الجنسية الصارخة العنيفة. كانت عيناها تجتاحانه من أسفل قدميه إلى رأسه ومئات من المعانى تطلقها النظرات... كانت تهتز وكان سائر جسدها يهتز هو الآخر معها وتطلع هو الآخر إليها بغير تحفظ ولا أدب والتقطت العيون فى غير موعد، وبحركة غريزية رفعت المربية يديها إلى صدرها وكأنها تخفيه من تلك العيون النهمة التى إجتاحتها على غير سابق إنذار ولكنها استوحت فكرة أوقفت الأندفاع الحيائى الاول.

ولذلك اكتفت بأن سوت شعرها ثم استأنفت موكب الفروسية فى أرجاء غرفة الاستقبال وهى تصهل وتحمحم وتضحك.

أما لوقا لاحظ هذه الحركة فقد أصبح متأكدا إنها أوقفته وبدلت فيه نزوته وعلى أثر ذلك شعر بغتة بارتباك وامتعاض.ولكن المربية أتجهت فى ذلك الوقت وهى تدب على قوائمها الأربع يعلو ظهرها الفارس الصغير نحو ركن منزو من الغرفة وتطلع إليها لاول مرة وخيا إليه أنها تشبه إنسانا بائسا إذ الفارس الصغير الذى يستطيها قد سقط من على ظهرها فانقلبت من فرس إلى امرأه فى منتهى الحنان حملته وهى تربط بيديها عليه لتطمئنه وتخفف من حدة بكائه وفى تلك الأثناء عاد لوقا إلى حجرته.

وفى الأيام التالية الفى لوقا نفسه يترك غرفته ويعرج على غرفة الاستقبال كثيرا ليلقى نظرة على ما يجول فيها متذرعا بحجة إنه نسى إحد كتبه وتارة أخرى أنه إنما جاء لكى يرتاح قليلا من عناء المذاكرة وآونه أخرى بدون حجة على الاطلاق وصراحة متناهية لكى يلقى نظرة على تلك السيدة التى علم إنها كانت تسر من الفضولية التى يظهرها نحوها، أراد أن يخدع نفسه بحيلة ما لكى يخفى طبيعة

الانجذاب نحوها، ولكنه لم يكن معتادا على الكذب والخداع ولم يرد أن يسلك سبيل المراوغة ليتمكن من الوصول إلى هدفه.

لقد تبين له بوضوح تام أنه كان يأتى إلى غرفة الاستقبال، وهو يأمل أن يشاهد المربية بتلك الاوضاع الشاذة تحبو الأرض بيدها ورجليها وتدب كأنها فرس غراء مرفوعة الرأس، مكشوفة الصدر ذلك المشهد الذى كان يشعر معه بلذة فائقة، لم يكن راضيا عنها بل كرس كل قوته وإرادته لكى يسعى إلى فصم عرى تلك الرابطة الجديدة بينه وبينها حاول فى البداية أن يتحكم بنفسه وأن يطرد تلك الرغبة عنه ولكنه لاحظ بسرعة إنه بعد أن قاوم تسعة أو عشر مرات لم يحصل على النتيجة التى كان يتمناها، إنه كان دائما ما يقف أمام الحجرة بطريقة بلهاء ومريبة أكثر مما سبق.

أنه حاول غريزيا أن يجرب طريقة مختلفة ليحضر ويلقى على غرفة الاستقبال كلما شعر بالرغبة لذلك ولكن حاول تغيير طبيعة لذاته وهو يراقب المربية بانتباه فى البداية كان الامر يتعلق برغبة ساذجة ومسرة خافية كان غير مكترث لها. حاول الادخال على رغبته هذه لذة جديدة بانتقاضية نفسية وبصورة لاشعورية عاد إلى نفس الحيلة التى تبناها عندما تخلص من كتبه فى الماضى.

لقد لاحظ بدون أن يجهد نفسه فى تلك الملاحظة أن تلك السيدة لم تكن جميلة، ونقص الجمال والجاذبية لديها كان برجح كفة رغبته المبهمة والمحتشمة بصفاء وإعجاب لا مصلحة فيه ولا سبيل إلى التخلص منه وتحرير عواطفه المكبوتة من هذا الرباط الذى أوثقه وكبّل احساساته.

لقد ألهمته هذه التفكيرات نوعا من المواساة، فهذه المرأه: كانت فى الحقيقة خالية من الجمال والظروف إنها لم تعد فتية فليس لها أى مسحة من الصبا والجمال.

ولكن المؤاساة عاشت مدة قصيرة فقط، وفيما هو يدقق مرة أخرى فى لحظة

اعتقد فيها إنه يمكنه أن يدقق النظر خلسة دون أن تشعر به المربية لاحظ إنها تعجبه لكونها مختمرة وناضجة وخالية من الظرف، ولكنه بالحقيقة ظل يشعر فى لذته، طعم الاشمئزاز ليس كعنصر من عناصر القرف بل نوع من الاغراء الاكثر شهية، حدث كل هذا دون أن يتمكن من الامتناع عن التفكير به ودون أن يدرك كيفيه خدوثه فى أعماق غريزته وفهم أن بامكانه أن يعيد هذه المرأة فتية وجميلة لما تتمتع به من القسوة والحيوية.

وهكذا فإن رغبات حواسه كانت أقوى من رغبته للموت، وهذا مما جعل البشاعة محببة إليه رغما عنه، فانه يسعى للعودة إلى هذه الحياة التى أراد الخروج منها مهما كلف الثمن.

هذا الاكتشاف قاده إلى اليأس لأنه فهم لو كان بامكان نظرياته ونظراته النهمة التى يلقيها على صدر أو جزء آخر من تلك المرأه: أن تكون كافية لهدم البناء الشاق الذى بناه من العصيان، فان هذه النظرات لم تكن كافية لتجعله يحيا بشكل أيجابى.

فى هذه اللحظة أخذت المربية جانب المبادرة، كأنها اكتشفت أفكاره. فحينا كانت تتوجه إلى غرفة لوقا لتجعل أحد الأولاد يلحق بها، ثم ترمى بنفسها على سريره، مقلوبة على ظهرها تتأرجح قدماها فى الهواء وهى تلعب إحدى لعبها العاديه فى العراق الصاخب وأحيانا أخرى كانت تأتى إليه عندما تصل الضجة إلى قمتها فتعتذر له عنها، كانت تقوم بها وتحاول إلا تجعلها غير مقصودة وهى تضحك وتمزح ولكن بدا للوقا بأنها لم تعد تقوم بها تلقائيا كالسابق.

ثم اختلفت لعبة جديدة فرضت فيها على اللاعبين مغادرة المكان لحظة، ولما جاء دورها عوضا عن التوجه إلى المشى دخلت غرفة لوقا بدون أن تحدث صوتا، وإنحنت على كتفه تلصق خدها بخده وقالت :

– ماذا تذاكر ؟ لاتينى ؟

– لا... فرنسى.

– ولكننى قمت بتعليم الفرنسية.. دعنى أرى ما تقرأه.. لكورني.

بدا صوت المربية لغويا جدا، وبالكاد وجد صعوبة من الالتفات نحوها، ووجد وجهه يكاد ينطبق على وجهها، وجهها كان ينظر إليه بسعادة ويبتسم له بعينين حمراوين. لاحظ لوقا بأن عينيها كانتا متهدلتين قليلا تلمعان تحت البودرة الزهرية اللون التى غلطت بها عينيها، ولاحظ فعلا بأن هذه التقاطيع قد سرته كعادته، لأنها كانت مغرقة وما أن رأته ينظر إليها بقساوة حتى قالت له وهى تضحك :

– هيا إلى المذاكرة...

ثم أبتعدت عنه تمشى مشئ القطى نحو الباب وهى تصرخ :

– والآن هل يمكننى الدخول ؟

وما أن وافق الاولاد على ذلك حتى غادرت الغرفة.

وفى اليوم التالى وبالكاد كان لوقا قد أرتمى فوق سريره وأغمض عينيه، حتى شعر وهو غارق فى نومه، بثلاث أو أربع أجساد متحركة تسقط فوقه، لقد كانت المربية يلحق بها تلاميذها الصغار الذين أرتموا فوقه بشىء من الخبث أثناء ملاحقتهم لها.

كانت المرأة والأولاد الثلاث يتصارعون ضاحكين وصراخهم يعلو ولكى يتمكن من تحرير نفسه بدا يصارعهم ويبعدهم عنه، ولاحظ بشىء داخلى يدفعه فى وسط هذا العراك ليفتش بيديه عن جسد المرأة غريزيا.

كما أنا بيدو عليها إنها تفتش عنه هى الأخرى، ورغم ما كان يبدو منها من

التلقائية وعنف، وعوضا عن المحاولة للتخلص كانا بشكل غريزى يريدان إطالة أمد هذه المصارعة لإشباع حاسة اللمس.

ثم على أثر حركة أتت بها لتتخلص من الأولاد وجد لوقا ساقيها يضغطان على وجهه وفى هذه المرة تأكد له بأن عملها هذا كان مقصودا فلقد كانت أفخاذها تقع فوق فمه وترتج فوق هذا الفم كأنها كتله من لحم خفيف ولذيذ تشعر معه شفتاه بارتجاف عضلاتها لدى كل اهتزاز مقصود، وهى تمتد لكى لاتوجعه، وأخيرا قامت عن السرير وصرخت :

– أكتفينا من هذه اللعبة... والآن سأعرض عليكم غيرها.

وفى الحال هدأ الأولاد فأكملت :

– اللعبة الجديدة تنحصر فيما يلى : سنطفىء النور فى البيت كله ثم نقترح على اسم أحدنا ليمثل اللعبة بينما يذهب الآخرون للاختباء فى الغرف الأخرى وعلى الشخص الذى تصيبه القرعة أن يفتش فى الظلمة عن الباقين ويسمي كل واحد عندما يقبض عليه ويعرفه، ثم يجب الانتباه بلزوم بقاء البيت مظلما، بدون أن يتكلم الشخص الذى يفتش عن الآخرين بل يستعمل يديه فقط، ثم اضافت وهى توجه حديثها إلى لوقا :

بالطبع من الواجب إطفاء النور فى غرفتك اذا كان هذا لا يزعجك..

وفى هذه المرة إذا شئت يمكنك أن تشاركنا اللعب.

قال لوقا :

– فليكن.

وأضافت المربية :

- ممنوع الاختباء وقفل الغرفة بالمفتاح... كما إنه ممنوع الاختباء فى داخل الخزانات.

فسألها الولد الصغير :

- هل يمكننا الأختباء تحت الاسرة ؟

- نعم الأختباء تحت الاسرة مسموح.

غادر الجميع غرفة لوقا واتجهوا نحو غرفة الاستقبال، ثم كتبت المربية أسماء اللاعبين على قطع صغيرة من الورق وبعد أن جرى خلطها سبحت إحدى التوأمتين ورقة القرعة وصاحت البت وهى تفتح الورقة المختارة :

- لوقا...

فرأى لوقا نظرات الحسد تنهال عليه من أولاد خالته.

قالت المربية للوقا :

- يجب أن تظل هنا بالصالون بينما نذهب لتختبىء.

ووافق لوقا ذلك بإشارة من رأسه وأتجه إلى مقعد قرب المدفأة وجلس عليه.

غادر الجميع بما فيهم المربية غرفة الاستقبال وأطفأت الأنوار فى جميع الغرف وبدأ لوقا بالانصات والظلمة مسيطرة على المكان وسمع وسط هذه الظلمة وقع خطوات تغدو وتروح وأبواب تفتح وتغلق وقرقعات واصطدامات وشعر فى هذه اللحظة إنه قد أنغمس كليا فى هذه اللعبة محاولا معرفة مكان المختبئين.

وفى بعض الأوقات كانت تمر بعض السيارات فى الشارع فتسقط شعاعا مضيئا يدور نحو السقف ثم يختفى وخلال لحظة وفى وسط الظل المخطط لضوء قوى كان يرى حجرة الاستقبال بكاملها، وخلال هذه الإضاءات شاهد خيالا أسود واقفا باستقامة فى زاوية الغرفة فى الفراغ الكائن بين المكتبة وواجهة الاوانى الخزفية.

لقد كانت المربية واقفة فقال لوقا لنفسه إنها كثيرة الحيلة، فى غرفة الاستقبال لم تكن مختفية تماما كأنها عمدت إلى أن تظهر نفسها فى هذا المكان المطروق وكأنها قدرت أن يهتدى إلى مكانها فقصدت الاختباء فيه.

وبعد لحظة من التفكير، قرر لوقا أن يتظاهر بالتفتيش فى المشى مع إنه بالحقيقة لن يفتش عن شىء وسيذهب رأسا إلى المكان الذى اختبأت فيه ويصرخ باسمها فى صوت مرتفع وراقت له هذه الفكرة المقررة، فسيظهر لهذه المرأة بأنه أكثر حيلة منها وخلال هذا التفكير سمع صوت إحدى التوأمتين يقول :

– أننا جاهزون للتفتيش...

وأجتاز بسرعة وهو يتحسس حجرة الاستقبال فوصل إلى الردهة حيث وقف لينصت، لم يكن يريد الالتقاء بأحد أولاد خالته، كان يفضل أن يلتقى بتلك المرأة، شعر لأول مرة بنية لم يكن لها علاقة باللعبة فتقدم نحو مشجب المظلات وتظاهر بالتفتيش بين العصى والمظلات فسمع صوت ضعيف يناديه من بعيد وهو يكرر :

– انك ستتجمد من البرد...

قام لوقا ببعض الخطوات واصطدم قصدا بكرسى ثم عاد إلى حجرة الاستقبال وتوجه ويديه ممدودتين إلى حيث كانت تختبىء المربية.

فكر أن يقوم بقفزة ويمسك بها ويصرخ على الفور: هذه هى المربية ولكنه تخلى عن تلك فى اللحظة الآخيرة واستوحى فكرة مشوبة بالخبث.

وصل إلى المكان المعين فمد يديه إلى الفراغ فاصطدمت أصابعه بجسم لدن ثم لمست محيط خد، لم تحرك المربية ساكنا ولم تنبس ببنت شفة علامة على إنها كانت متقيدة بتعاليم اللعبة، وجالت أصابع لوقا على خدها ثم ثم نزلت إلى ذقنها وأخيرا استقرت على رقبتها.

وبينما كان يدير أصابعه على ذقنها، علم بأن هناك لعبة آخرى قد حلت محل اللعبة الأولى، هذه اللعبة الجديدة لم تكن مجرد لعبة، ولكنها الرغبة التى كانت تدفعه يوميا إلى أن يتلصص على المربية أثناء لعبها مع الأولاد، وعلى أثر هذه الفكرة إنتابته اضطراب شديد قطع عليه أنفاسه وأذكى النار فى وجهه، فأخر إعلان اسمها بخبث وجعل أصابعه تلعب على وجه المرأة كما لو كان قد صعب عليه معرفة صاحبته.

كان يسره بلا شك أن يدغدغ تلك الخد وأن يطيل اللعب فيهما ولهذا السبب طال مدة اللعب بوجهها لأنه شعر بلذة وهو يقوم بذلك، وبالتالى كان يسر بالمشاركة التى كانت تجمعها رغم إنه شعر بشىء من الخسة لا يعرف كنهه.

وبعد تلك المداعبات وبعد أن طال الزمن خشى لوقا أن ينكشف أمرهما فصرخ:

- إنها الآنسة...

وفى الحال إبتعدت الآنسة التى كانت فى غير وعيها نتيجة لتلك المداعبات وأرتفع الصراخ والضجيج من الأطفال وأضيئت الأنوار ودخل الأولاد يجرون وهم يغالون فى التبجح بالمكان الذى اختبأ فيه كل منهم.

فقال أصغرهم :

- لقد اختبأت فى غرفة المكانس.فقاطعته المربية بقساوة :

- لاتتحدثوا عن المخابىء... والا سينتهى اللعب بسرعة.

وخلال بعض الوقت بدأوا بمفاجئات هذه اللعبة ثم أعلنت المربية :

- الآن جاء دورى... ولكن انتبهوا... يجب الاختباء جيدا لأننى أعرفكم فلى القدرة على معرفتكم بسرعة.

كانت هيأتها تدل على إنها مسرورة، منشرحة الخاطر لا هم لديها وقد منحت نفسها كليا للعب، أما لوقا فقد أعجب بها لما رآها على هذه الحالة ولم يتمكن من الاعجاب إلا بسرعة بديهيتها.

وأضافت وهى تتجه الى مفتاح النور :

سأقطع النور.... أركضوا جميعا... أختبئوا...

وخيم الظلام الدامس كأنه مغارة فى جوف جبل... وخلال لحظة تردد لوقا بين فكرتين كان بإمكانه أن يختبى دون أن تعثر المربية عليه والفكرة الثانية هى إنه يختبىء فى نفس المكان الذى اختبأت فيه المربية وفى هذه الحالة سيكون من السهل عليها أن تكشف مكانه وهذه الفكرة أكثر إنجذابا رغم كونها مكونة من أشياء غير مرغوب فيها.

كانت الفكرة الأولى توحى بلعب مستمر يضاف إليه هذه الرابطة الأخيرة من اللحم والقرف الذى يربطه بالحياة.

أما الفكرة الثانية فهى قبول هذه الرابطة، مع ضمان اللقاء الحتمى فى ذلك المخبأ وبالصدفة مرت سيارة عكست أضواءها على السقف والجدران فأضاءت المكتبة حيث يختبىء وتأكد له إن المرأة لم تكن قد غادرت الغرفة وإنها قد لمحته.

أتخذت المربية نفس الوضع الذى لوقا قد إتخذه سابقا وكررت حركاتها بعينيها إذ إنها توجهت إلى المشى وتظاهرت بالتفتيش والمسير فيه ثم مرت عائدة إلى غرفة الاستقبال.

فهم لوقا من تحركاتها إنها قادمة نحوه وقد لاحظ ذلك من ضوء سيجارتها المشتعلة بين شفتيها كانت النقطة الحمراء المضيئة التى ترسمها سيجارتها تشبه كوكب فى السماء الداكنة.

ولما أقتربت أصبح اللهب المنبعث من تلك النقطة الحمراء قريبا للغاية من وجه لوقا شاهدها لوقا تقذف بتلك السيجارة إلى تحت قديمها وتقوم بسحقها ثم شعر فى نفس الوقت إنها قامت بتطويقه من عنقه، كإنها حية رقطاء تلتف حول رقبته بحركة قوية ثم شعر بأنفاس ممزوجة برائحة التبغ والشحم نلفح وجهه وتبعه بالحال الشعور بشفتين تطبقان على شفتيه.

وفى هذه القبلة الأولى فى حياته تبين له معرفة احساس مضطرب وفى نفس الوقت لذيذ وكريه، شفتا المرأة المنفرجتين غطتا شفتيه واحتواتهما كما لو كانت تريد حبسهما فى حركة مص دائرية لاتبتلع فمه فقط، بل حنكه وقاعدة منخاريه.

كانت شفتاها تشبهان جرحا عميقا وتبدوان جامدتين، بدون حياة بتلاحم الوجهين بأكثر من حركة إرادية، منفرجتان فوق شفتيه، وكان وجهها ملتصق بوجهه بحركة إرادية كان لسانها يتسلل بين شفتيها ليلج بشدة فى فم لوقا، كأنه يعسوب يمتص الرحيق من فمه، راح لسانها يصول ويجول كأنه لا يحاول سبر أعماق فمه فقط، بل أعماق جسده بكامله يمنعها عن ذلك قصر فى الوسائل المستعملة.

وبدأ لوقا يفكر فى ذلك اللسان الخشن الرطب، الذى يشبه حلزونا خرج من قوقعته ولكن بعد أن أطلق سراحه لم يشعر بالتعب رغم وجوده، ولكنه حاول أن يعوض ما فاته، أما القبلة فقد بللت فم لوقا بسيل غزير من اللعاب.

وأنتظر لوقا طويلا أن تعلن المربية أسمه ومكان اختبائه ليسدل الستار على هذه المهزلة وتنتهى القبلة المميتة ولكن المرأة لم تفعل بل إنها كانت تترنح من فرط النشوة وكانت تريد المتابعة وجاءه الفرج إذ خرج أحد أولاد خالته الصغار وقال لها :

- أنت لاتفتشين... لقد التفت حول لوقا فقط... هذا ليس بالحسبان...

بدا للوقا عند سماعه هذا الصوت إنه يسمع صوت براءته فى اللحظة التى كانت المربية تتخاذل وقد احرقتها النشوة فتركته لدى سماع ذلك الصوت حالا وإبتعدت عنه وهى تصطدم بالاناث قائلة بصوت متهدج :

- لماذا لايكون بالحسبان ؟ إننى لا أزال أفتش.

وسحب لوقا منديله رغم اللهاث المسيطر عليه وراح يجفف فمه المبلل باللعاب.

وأنتهى اللعب بغتة بصورة عادية كما ينتهى لعب الأطفال بعدم إكتراث وتوجه لوقا إلى حجرته وسط الظلمة الدامسة ثم رمى نفسه فوق السرير وظل ينصت إلى أصوات الصغار وصوت مربيتهم مدة طويلة ولم يشعر إلا بالنعاس يداعب أجفانه ويسلمه إلى لذيذ الكرى ولكنه لم يلبث أن أفاق على هدوء مباغت ورأى الباب يفتح وخلال خيط واه من النور شاهد المربية تدخل إلى غرفته، كان الأولاد فى حجرة الاستقبال يتسامرون بهدوء، دلالة على إنهم يرتدون ثيابهم استعدادا للعودة إلى البيت فى حين كانت المربية تقترب من السرير وتنحنى هامسة :

- هل كنت نائما ؟

أجاب لوقا :

- نعم كدت أنام.

فسألته بصوت خفيض :

- لماذا لاتأتى لزيارتى فى منزلى يوم الاحد ؟

فسألها لوقا :

- أين تقيمين ؟

فما كان منها إلا إنها أعطته ورقة بها عنوانها، ولم يبق من سروره المعتاد شيئا عندما مالت بجسمها عليه وشعر بلذه مشوبة باحساسات غامضة كالتى شعر بها فى قبلته الأولى عندما تماست شفاهما بحركة عصبية خاطفة ثم صرخت وهى تندفع نحو الباب :

- قادمة ... قادمة...

الفصل السابع

جاء يوم الاربعاء ولم يبق للموعد سوى ثلاثة أيام، وخلال تلك المدة كان لوقا يقرر أن بذهب إلى الموعد المضروب بينه وبين المربية ثم يعود فيعدل عن هذا القرار وينتهى به الأمر إلى إتخاذ قرار عدم الذهاب. لقد قرر أن يمنح نفسه الحب، ورفض الحب وهكذا ظل فى دوامة حائرة لا يقرر شيئا إلا وينتصب له ما يعاكسه.

جميع الاسباب كانت تهيب به أن يذهب إلى هذا الموعد ولم يكن ثمة سبب يدافع عن رفضه لزيارتها فى بيتها إذ أن رفضه كان منصبا على رغبة التى لا أمل منها في هدم الروابط التى تربطه مع الحياة، والرغبة وهى أكثر من سبب ، كانت نوعا من نقطة الشرف المولودة بالظلام والتى كبرت فى الزاوية الخفية من روحه.

وفهم أن المربية بحبها له، كانت تريد منه أن يعيش، ولكن هذا الحب كان يمتلك حواسه وثمة شيء يزعجه هو أن جوع حواسه قد ربح المعركة بسهولة وبعد أن حدث ما حدث مع تلك المرأة بدا له إنه عرف نفسه وعرف تصرفه كذكر.

وجاء يوم الاحد وهو لا يزال يتخبط وسط قراراته، وفى الصباح قرر عدم الذهاب إلى بيت المربية ولكنه ما لبث أن غير رأيه بعد الغذاء فأعلن لأمه بروح مملؤة بتحد غامض بأنه ذاهب إلى السينما ثم غادر المنزل ولكن بعد بضعة خطوات لاحظ أن قدميه تقودا إلى إتجاه آخر وجد نفسه يتجه الى الحديقة المجاورة لمنزلهم.

توجه من فوره إلى مقعد حجرى وجلس عليه وراح يتطلع إلى ما حوله وبدأ يشعر أنه فريسة ضيق يسيطر على جسمه وروحه ويفقده لذة الحياة وحيوية الجسم، ولكنه مع ذلك لم يكن مكتئبا للشعور الذى ينتابه إذ أن عدم الارتياح الذى يسيطر عليه سيطرد ذكرى المربية، والاغراء المسيطر عليه للذهاب لرؤيتها، بالإضافة إلى أن هذا الارتياح كان وهميا وغريبا ومستمدا من الحيرة ومن تردده المتزايد زيادة

لايمكن قياسها، ومما لاشك فيه إن هذه الزيادة كانت تدفعه إلى زيادة المربية فى بيتها مع الشعور بالقرف والامتعاض مع علمه بأن ما يعجبه منها ليس له علاقة بهذا الشعور الغامض بل كان يعجبه هذا السلم المعكر الاصم.

كان يدرك بأنه ان حاول مواجهة الاغراء بعنف وصراحة لامكن لهذا لاغراء الاستفادة من قوة ممانعة ليحول هذه الأخيرة إلى مصلحته الخاصة، وهكذا فان الشىء الوحيد اللازم إجراءه يكمن فى تهدئة كل مناقشة والركون إلى النوم،

ولكنه كان يعلم لماذا عاد إلى هذه الحديقة كأنه ناسك يعودإلى صومعته لينابع طقوسه الدينية، وهكذا فعل لوقا وهو يتابع قدمه فى ركاب الحياة المقدسة ثم يقنع نفسه بإستحالة الرجوع عن هذا الرفض.

وهكذا فإن الذهاب إلى تلك المرأة هو نفس الخيانة التى يقدم عليها تجاه نفسه، لقد كانت تنتظره فى بيتها كما ينتظره والداء على مائدة الطعام، وكما ينتظره أساتذته ومعلموه فى المدرسة، كان الجميع يتآمرون عليه لتقوية ضعفه فيترك فكرة الموت التى كرس لها كل شىء ليبعث فى داخله حب التمسك بالحياة وملذاتها، وخلال تفكيره وتأملاته كان الوقت يمر سريعا ولم يلاحظ النور الذى بدأ ينتشر نتيجة لاضاءة الأنوار الكهربائية ولم ينتبه من شروده إلا عندما كان الليل يسدل ستاره، إذ ذاك شعر بأن جسمه يقشعر من البرد، بل كأنه قد تجمد ثم تذكر فجأة أنه لم يكن بالحقيقة إلا طفلا صغيرا تأخر عن العودة إلى البيت إلى ساعة متأخرة.

وبينما هو يسير على طول الطريق الذى أصبح معتما فى ظلال الشجر سمع صوتا ينادى، إننا نقفل... لقد كان الحارس الخاص بالحديقة ينادى إن موعد إغلاق الحديقة قد أزف وأن على الجميع أن يغادرون هذا المكان.

كان صوت الحارس يرن فى أذنى لوقا بطريقة مزعجة ومفحمة باعتباره نداء يطالبه بالعودة إلى المنزل وإلى عالم المدرسة الذى كان يبغضه وأن يعود الى هذا

مجتمع الذى يكرهه لدرجه لاتقدر، وفكر لحظة بالبقاء داخل الحديقة العامة وقضاء الليل فى الساحل المدورة ليحادث نفسه ويحادث الأشجار، ولكن الأشجار خالته فتوجه من فوره إلى الباب الخارجى وأخذ طريقه إلى منزله.

والآن وقد عاد إلى المنزل تملكه الخوف من لقائه فى الغد بالمربية، بل وزاد خوفه بعد أن حطم رغبته الملحة للقيام بزيارتها إلى منزلها، وما سيحصل عليه من لذة اشتباها ساعة أن قبلّها تلك القبلة الأولى فى حياته.

الفصل الثامن

ولكن المربية لم تحضر فى اليوم التالى إذ أن والدة لوقا اخبرته بأن خالته قد شفيت من مرضها ولم يبق من ضرورة لوجود المربية وإبعاد الأولاد عن المنزل. فشعر لوقا بخيبة الامل إذ أنه بالحقيقة شعر إنه كان يريد أن يرى تلك المرأة مرة ثانية.

هذه الرغبة البسيطة والمباشرة المشابهة لشهوة طبيعية جعلته يخاف، لأنها كانت تظهر له بوضوح، بأنه لايزال متمسكا بالحياة وبمناهجها المبهمة التى اشمأز وقرف منها، مضت خمسة أيام أخرى على اليوم الذى أخبرته والدته بشفاء خالته وأن المربية لن تحضر وأصبح للوقا أملا بأن ينسى هذه المرأة، وفى صباح يوم الأحد وفيما هو يمر أمام كشك الهاتف إذا به يقف فجأة وبصورة ملحوظة تكاد تكون آلية ليدير رقم تليفونها وجاءه الرد على الطرف الآخر من الخط... وكانت هى المتكلمة وردت عليه بنبرة تحمل فى طياتها بأنها أنتظرته طيلة المدة السابقة الطويلة وقالت له معاتبة إياه :

– وأخيرا إنك لم تأت نهار الاحد الماضى ؟

– لم أتمكن من المجىء اليك... هل كنت تنتظريننى ؟

– نعم أنتظرتك... ولكن ليس طويلا...

وبدا للوقا ان ذلك الصوت الذى يسمعه غريبا على أذنه... إنه صوت فقد السرور الذى أنبثق منه ولم يعد الموضوع يتعلق بمقاومة الغواية.

وسألها لوقا بصوت منخفض :

– هل يمكننى المجئ إليك الآن ؟

وردت المربية بسرعة :

- لا... ليس اليوم... إننى أشعر ببعض التعب... إن صحتى ليست على ما يرام فى هذه الأيام...

وأجابها لوقا بصوت حاول ألا يظهر غضبه الشديد :

- فهمت...

- هذه هى الحقيقة... أرجو أن تكون قد صدقتنى فأنا فعلا أشعر ببعض التعب. هذه الأيام ولكن يمكنك أن تحضر الاحد القادم...

هل يمكنك ذلك ؟

- نعم...

- إذاً إلى اللقاء الاحد المقبل.

وخلال الأسبوع التالى لم يشغل لوقا تفكيره بأى شىء سوى الموعد المرتقب مع تلك المرأة بعد أن ودع كل مقاومة ورفض الرغبة بكل ما يقوى رابطة الحياة لديه، وحصر إهتمامه وتفكيره بها وقد تسلط عليه قلق ورعب واضطراب عميق لأنه أصبح نهبا لرغبة قاسية فرضتها عليه حواسه.

فالموت ورغبته فيه لم يعد لهما حساب لديه، وكذلك بالنسبة لحياته هذه إلا إذا اعتبرناها حياة القلق وضيق النفس ؟ وجرف الغرام لوقا وسحبه بعيدا عن حالته القديمة كالسيول القوية القادمة من قمم الجبال التى تجرف معها الطمى والحجارة ولاتسمح بأى شىء يقاومها ولا بوضع الرجل حتى على الارض الصلبة.

لقد بدا له بأنه فقد كل شىء، شخصيته وقيمته، كل شىء يستثنى من ذلك هذه المرأة التى كان خياله يصورها له فى شتى الاوضاع مشاهد ومحببة مقلقة فى نفس

الوقت ان ما كان يخشاه قد حصل الآن : لقد عاد ليستأنف تذوقه للحياة بعد أن حطمته كانت عودته إلى الحياة تنحصر فى حياة مصغرة وضيقة الافق من الترف بدون أى امل، ليصل بها الى شعور اكثر سعة وأكثر إيجابية.

أما وقد شعر بأنه حمل على رغبته لهذه المرأة بغريزة ضيقة وحيوانية واضحة تبين له بأنه لايحبها ولن يحبها أبدا.

لم يعد لوقا يشتغل وقد أمتنع عن الأكل والنوم سوى جزء يسير يقيم به أوده وقد اصبحت احساساته دائمة الاضطراب بشكل مستمر، وفكره فريسة للتقزز والقرف وبات ينتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم المنتظرر ومرور تلك الأيام الباقية على هذا الميعاد.

وفى يوم الاحد المنتظر غادر منزله فى ساعة مبكرة وكانت المربية تقيم فى شارع قديم وفيما هو يسير فى تلم الشوارع شعر أن رجليه لاتقويان على الاستمرار فى السير على طول هذا الطريق وأن رأسه المثقل بالهموم والأفكار يترنح وان الحقد يعصف بكيانه على أنه وافق بالقيام بتلك الزيادة.

وكان يشعر رغم اضطرابه وهو يتوجه الى بيت المربية ليوافيها فيه وينفذ الرغبة التى بدأ ينسج خيوطها عندما كان اللعب يسير سجالا فى منزله. ان ما كان يقوم به بموافاتها فى الموعد المضروب هو شئ طبيعى، ذلك الشئ الذى يبدو له بصورة دقيقة يوحى اليه بهيئة الاحترام الكاذبة لهذا الإنسان رغم الهزيمة التى ترتكز فى قبوله لهذا الوضع الدنىء لذى يعتقده شيئاً طبيعياً.

وأخيرا وصل إلى العنوان ووجد البيت المنتظر قريبا من أسوار ثكنة عسكرية، كانت البوابة الخارجية مفتوحة على مصراعيها وشاهد فى أعماق المدخل لوح قديم من الزجاج الملون، أرتقى السلم وقدميه ترتجفان وقد أمتلأ قلبه قرفا واشمئزازا وأخيرا وصل إلى الشقة الخاصة بالمربية وتخيل أشياء كثيرة ساعة أن تقابله وهيأ له

عقله ذلك اللقاء المحموم العاصف وتخيل أيضا حرارة لسانها المتلهب الذى لايتعب... وتخيل اساليب الغرام التى سوف يحصل عليها من تلك المرأة المجربة المحنكة فى هذا المجال... ومدى ما سيحصل عليه من لذة بات يحسب لها الأيام والثوانى.

وطرق الباب وانتظر برهة وهو يمنى نفسه إلى أن فتحت إحدى السيدات الباب واستولت عليه الدهشة من تلك الرائحة الكريهة التى تنبعث من الداخل عكس ما كان يتوقع من رائحة الحب وسألته المرأة :

- من أنت ؟ وماذا تريد يا سيدى ؟

سألته المرأة المسنة التى تلبس الثياب السوداء.

فذكر لها اسمه ثم قال :

- لقد جئت أسال عن أخبار المربية.

وأجابت المرأة المسنة :

- إنها مريضة... إذ صحتها فى تقهقر مستمر.

فخرج لوقا الى الشارع وعاد الى منزله وتوجه إلى غرفته ثم أرتمى فوق سريره وشعر بشىء اقوى وأوسع من الشفقة على هذه المرأة التى لم يكن يحبها والتى لم تكن رغبته بها إلا فرصة أراد عدم إضاعتها.

شعر بالكراهية وبمقت شديد لنفسه التى سيطرت عليه الآن وعلى الأقل كان شعوره ضد هذا القسم من جسمه الذى أنزل عليه الذل والأهانة على أثر هذا المسعى للخجل ذو النتيجة المقيتة أنه وجد امرأة محتضرة حيث كان يأمل أن تنتظر امرأة للحب.

وبدا له ان الحوادث جاءت صامتة بدون ضجة تعطيه نوعا من الدروس وتدله

مجددا على الطريق الصائب الذى أبعدته عنه رغباته. لقد كان هنالك شيئا موسيقيا فى مشهد الارتباك هذا وكذلك مشهد الموت فى منزل المربية، كأنه نغم توقف خلال لحظة قصيرة على أثر تباين نغمات أخرى ثم عادت النغمة لتستمر بقوة أعظم وفى إيقاع أوضح وأثبت.

هذه النغمة التى كانت ترن فى أذنيه منذ مدة طويلة وقد أخطأ فى نسيانها نغمة عميقة منخفضة. نغمة الموت ممزوجة بالكآبة وبنفس الوقت نغمة ساحرة لانها نبعث من ذاته.

- ولنفرض أن المربية لن تموت ؟

سأل لوقا نفسه هذا السؤال بفضولية باردة ولكن تبين له لدى توضيح هذا الامل بأن حواسه قد استفاقت وعادت إليه كراهيته لنفسه فورا وبصورة أقوى وأعنف لم يكن راغبا أن تعيش المربية لاجل نفسها بل كان يرغب أن تحيا وتموت لاجله هو وحده.

- هذا كل ما تعنيه الحياة.

فمر بذلك ليفهم حياة والديه وحياة معلميه والعالم وبغته فكر بأنه يتمنى فعلا أن تموت. ثم ساقه تفكيره السائر على هذا النمط، بأن يتمنى وبشكل أعنف وأقوى، أن ينزل الموت بساحته هو الآخر.

وبدأت سلسلة أخرى من سلاسل العصيان.

الفصل التاسع

بعد يومين من تلك الزيارة علم لوقا إن المربية قد ماتت، لقد علم بتلك الوفاة من والديه إذ إنهما تكلما عن ذلك الموضوع أثناء تناول الطعام ولم ينسوا أن يثنوا عليها بعبارات الثناء، كما انهم لم ينسوا أن يشيعوا كلماتهم بعبارات الرثاء والآسى المناسبين لتلك المأساة.

وقالت والدة لوقا :

- لقد كانت فتاة شجاعة المرح والبهجة ولم نكن ننتظر رحيلها المفاجىء.

وقال والده :

- إننى لم أكن أتوقع أبدا أن ترحل حياة تلك الإنسانة وهى لم تكن تمتعت أبدا بمباهج الحياة إلا بنذر يسير.

ثم تغير الحديث عن الموت إلى موضوعات أخرى ولكن لوقا الذى أمل بموت المربية سيلهمه شعورا إن لم يكن شعور الشفقة على الأقل فسيكون شعور تحرر، لكنه اكتشف عكس ما كان يرجوه، من إنه لا يزال يفكر بها وبرغبة كأنها لاتزال حية تنبض بالحياة.

وحسب ما كان يعتقد فالاحساسات التى ايقظتها هذه المرأة فى كيانه قد نوقشت نقاشا دقيقا بواسطة ذكرى حواسه على أمل ان يطردها يوما بعد يوم بشكل غذاء نقدى من الذكريات حتى ويوم تحتل امرأة أخرى المكانة التى أحتلتها هذه المرأة المتوفية.

لم يكن يتذكر أو يعرف عن تلك المرأة الراحلة سوى شيئا واحدا فقط تلك القبلة التى نالها منها والتى كانت مفعمة برائحة نزاعه للحياة، بأقل نداء من الذاكرة، لم

يعد إليه بهيئة تسلط فى كل لحظة بل كان عادة متمكنة منه، تعود إليه بانتظام فظيع نتيجة لانعكاس آليه طفيفه.

كان الكنز التافه المفجع الذى استعد للحياة لسنوات خلت، الكامن فى غياب المجهول يفيق أثناء الليل بغتة، فيحس بأن لسان المربية يبرز على مهل وبصورة أكيدة من الوسادة كأنه زهرة تخرج من أديم الأرض، أو كأن قماش الوسادة قد تحول إلى قطعة من اللحم، رغم مصونيته، ورغم شعور لوقا ان اللسان إنما هو قماشا فقط، فإنه كان يعض على الوسادة وكأنه يمتص رحيق ذلك اللسان إلى اللحظة التى يفيق منها كلية، وهو لايزال يقبض على القماش البارد بأسنانه الهائجة الخانقة المبللة باللعاب يشد بأسنانه على هذا السراب الذى لايمت إلى الواقع بصلة، ولايحتمل وقوعه بأى شكل من الأشكال.

وهكذا يستمر الاختلاط القديم بين القرف والرغبة إلا أنه فى هذه المرة لم يكن قرفا واشمئزازا لحب خفى وغير نقى بل مبررا جزئيا باشتراك حى من قبل المرأة، لقرف ناجم عن رباط يثير فكرة الموت ككفن لذكرى ورود الموت وصدورها، كانت نتيجة خمولا مفجعا لكافة أفكاره.

وبنفس الوقت أحدث ذلك خمولا بغيضا تجاه أهله الذين كانوا يتأرجحون فى نفسه بين الرغبة والنفور.

شعور القبلة وفكرة الموت كاننا تخلطان ثم تتحدان بانجذاب واحد غامض يبدو أنه يستمد قوته من ألوان الاستحاله والدانس التى تضفى عليه صبغة غامضة ومجهولة.

استلقى على سريره فى غرفته وداعب النوم جفونه كما هى العادة ثم وبعد أن نام عدة لحظات استيقظ مذعورا يرتعد من الخوف وينتقض بقوة كما عادت إلى ذاكرته ملامسة جسم المربية ساعة ان قذفت بجسمها عليه هى والأولاد الصغار.

لقد كانت هى بذاتها بدون مجال للشك فى صحة ذلك، وبالفعل وبشكل أقوى مما سبق، كان احساس القبلة وشعوره بها يكبر على قماش الوسادة، وبدا له كأن الليل بكامله كان يظهر هذا الفم من الظلمات التى تتحول إلى شفاه ولسان فى صمت حانق فتضج بحشرجة ملأى بحضور لايقبل الشك.

وكأنما تلك المرأة تود أن تشعره بالبهجة والضوضاء التى كانت تتمتع بهما فى حياتها وتسخر من غرور مسعاه وخيلاه مجهوده اللذين يبذلهما فى سبيل التحرر.

كان يبدو عليها بأنها كانت تود أن تقول له بسرور تقع عليه وتحتضنه:

- هل اعتقدت اننى أصبحت ممن فقد الحياة... إننى أعيش أكثر من أى وقت مضى وأنت... يجب عليك أن تحيا من أجلى أنا...

فلما صحا من نومه مذعورا اكتشف إنه انما كان يحلم... ولكنه فى حقيقه الأمر كان يحس أن تلك المرأة قد رحلت ولكن بعد أن تركت بصماتها فى حياته.

الفصل العاشر

مرض لوقا... ودام هذا المرض لمدة ثلاثة أشهر.. وخلال الشهر الأول من المرض كانت درجة الحرارة عادية.. وكان لوقا يحتفظ بتلك النظرات التاقبة وظل متيقظ الشعور صاحيا حتى ان هذا الصحو قد بدا له أحيانا أمه صفة من صفاته.

لم يعد يرغب فى الموت فى هذه الأونة، إذ إنه كان متيقنا من أنه سوف يفارق تلك الحياة.. وكان هذا اليقين منه يطمئنه إلى حقيقة واقعة، كان مقتنعا بأن اجله قد اقترب أن المنايا قد عزمت أن تودى به، فلم يعد أمامه سوى ارتقاب الموت والابتهاج سرا بتقدمه التدريجى.

إنه الأن لم يعد يكره نفسه بالصورة السابقة كالوقت الذى كان قد بئس فيه من تمكنه قيادة ثورته الى النهاية على العكس فلقد كان يشعر احساس المنتصر لاحتقاره القوى التى كانت فى كيانه والتى كانت لاتزال تقاوم حتى الان وترغب فى ايقائه على قيد الحياة.

إن القوى التى جعلته يحب الدروس ويحب أهله ويحب المربية قد فقدت الأن دعائمها القديمة وبدأت بالتقلص تقلصا وصل إلى نهايته قبل أن تتفرق نهائيا فى موجة الموت السوداء فى معلقة الدواء التى كانت الممرضة تعطيها له فى كل وقت، فى شعاع الشمس الشتوى الذى كان يتقدم نحوه حتى يصل إليه، فى عيون والدته الولهى، فى وجه والده المتأثر بالقلق.

كان يريد الموت وتأكد له الموت.. انه بالقرب منه وأنه سيموت حتما ولكن عندما سمع والدته تقول له فى نبرة متوجعة وهى تحسسه :

- يالله... إنك لم تأكل كثيرا ألا تريد أن تمثل الى الشفاه وتتعافى إنه كان يريد أن يقول الى والدته :

- ولكننى لا أريد أن أتماثل الى الشفاء... أريد أن أموت...

إلا أن هذه القوى الخفية كانت تلزمه ان يبتسم فى وجه والدته بدون رضاه ومن ثم يفتح فمه ويسمح أن ينزلق الطعام إلى جوفه وقام بعزاء نفسه معتبرا ذلك من الامور التى ينبغى له فيها أن يتساهل ويتسامح فيها مع الغير.

ولا علاقة لها بحياته هو بالذات تلك الحياة التى أصبحت الآن منفصلة عن الشواطىء القاحلة الحقيرة والتى ارتبطت فيها لمدة طويلة.

فى هذه الاحوال بدت له شخصيته الازدواجية التى شعر بتكوينها منذ اللحظة التى بدأ فيها الموت هو الحل الوحيد لقطع علاقاته مع العالم والتى كان من نتائجها أن تضخمت الحالة الثانية بشكل وحيد وعنيف وحاد.

كان لوقا يلعب دوره ببراعة عندما يكون والداه حاضرين وهو الدور الظاهرى لمريض عليه أن يشفى، ودور الطالب الذى يتعين عليه أن يعود إلى الدراسة، ودور الطفل المفروض فيه أن يكبر ويصبح رجلا، ولكن ما أن يصبح على انفراد حتى يعود إلى دوره الذى رسمه لنفسه ويلبس حلة المحتضر المتأكد بأنه مشرف على الموت وبالإضافة إلى ذلك كان ينتظر ويتربص إقتراب النهاية بروح مفعمة بالامل.

كان السرور ينتابه صباح كل يوم، عندما يحملون إليه ميزان الحرارة وعندما ينظر إليه ويرى ارتفاع درجة حرارته عن الامس كان يمتلىء بالبهجة والفرحة عندما يشعر بأن المرض يحمله بصفاء قلبه إلى هذيان يؤدى به إلى الخمول، ولقاء ذلك السرور الذى ينتابه وهو يتخيل بأن إحدى الغفوات القصيرة التى كان يسلم نفسه لها من وقت إلى آخر وجسمه ينصب عرقا على الآثر الحمى المستبدة دون أن يدرى ستتحول إلى موت أبدى.

لقد اكتسبت رغبته فى الموت احتدادا وطبيعة واقعية فريدة، فلقد كان يبدو له بأنه يرغب فى الموت تقريبيا بنفس الشهوة والحب كالتى كانت فيما مضى سببا يدفعه لاحتضان المربية ويحدث له أحيانا وهو يفكر أن يدخل فى روعه ويعتقد أن الموت هو اللذة الحقيقية التى يحرزها الرجال كانت والدته تقوم أحيانا بتخطيط كستقبله والمشاريع التى تنتظره بعد أن يشفى من مرضه.

لقد اعتقد فى إحدى الليالى إنه سيموت فعلا، أو بالاحرى اعتقد بأنه يفهم بوضوح المعنى الحقيقى لرغبته فى أن يموت إذ بينما كان نائما، وفجأة أرتخى رأسه حتى اخمص قدميه، لقد أصبح جسده خفيفا على أثر الضعف والانحلال.

حتى أن اهتزازه هذا كان اشبه باهتزاز الهشيم الجاف على أثر قبضة يد شاءت أن تقتلعه من جذوره.

وتطلع حوله بعد تلك الرجفة التى إنتابته وجعلته يهب من رقاده ويشعر على ضوء المصباح الكهربائى الذى كان لايزال وجعلته يهب من رقاده ويشعر على ضوء المصباح الكهربائى الذى كان لايزال ينير الغرفة طوال الليل وقد وضع على طاولة صغيرة قرب فراشه بامتداد جديد مؤلم على آثر رؤيته هيئة غرفته العامة.

لقد فهم بأنه لكى يموت يجب عليه تمريض الحقيقة الخارجية ولن يموت فيما لو قام بتحريض شخصيته على الموت إذ أن مهمته تنحصر بعد ذلك باعطاء الأمر لتلك الحقيقة، وجعلها حية.

وفى الحقيقة عندما ولد لم يبدأ الحياة ولكنه بدأ يسن الاحلام المزعجة وغير المعقولة لذلك فكر بأن عليه ان يموت، يجب أن يموت فعليه ان يستفيد من امتداد الكابوس ووصوله إلى أعلى درجة ليصرخ صوتا ويستيقظ.

لقد تذكر بأنه أحس بنفس الشعور الكابوس فى تلك الليلة االبعيدة عندما واعدته المربية لقد بدا له بغتة بأن الرغبة فى الموت هى قضية تتعلق به بالحقيقة لانها مهمة

وغير شاقة ولاسيما وقد علم بأنه لن يموت لاجل نفسه ولكن فداء الآخرين وعلى أثر ذلك ارتسمت على فمه إبتسامة صغيرة.

وشعر بعد ذلك بأن وطأة الحمى تزداد وتشتد حرارتها تدريجيا فتلف أعضاء جسمه بغطاء من العرق تحت الاغطية المتعددة والحشايا وباحساس من يستسلم للموت والابتسامة على شفتيه أغلق عينيه ونام.

وإذا كانت هذه هى النهاية... فانه استسلم لها دون يعرف هل هذا هو الموت أنها جزء آخر من مراحل تأنيب الضمير والعصيان.

الفصل الحادى عشر

وفى صباح أحد تلك الأيام وبينما لوقا يخرج من منزله فى ساعة مبكرة ليذهب إلى المعهد بدا له أنه قد ميز فى عقله اثارات تسبق الحوادث لخاتمة قريبة الحدوث. لقد كانت نوعا من الانتظار فى ذهنه وتوقعا للعمليات الواضحة وقلقا لحادث ما وان لم يحدث حتى تاريخه إلا أنه متوقع أمام ناظريه ولايمكن تلافيه.

وشعر لوقا باضطراب طفيف ولذيذ بنفس الوقت، كما إنه لم يكن يشعر بنفسه إنه شخص واحد لايقبل القسمة بل يحس بأنه مفرق إلى عدة أقسام ويتماوج كل قسم بجامب الآخر وقد تجمعت فى هدوء ثابت لا تتزحزح كبقايا باخرة فى الهدوء الذى يتبع العاصفة.

لقد لاحظ بنفسه أنه يرى الأشياء من خلال نظرة تختلفعن المعتاد بالاحرى لم يكن ليدركها ولكنه تملكها وأصبح سيدا لها بحاسة جديدة لايمكنه أن يحدد لها مكانا من جسده إذ بدت له موزعة فى جميع أنحاء جسمه.

ومع ذلك وبنفس الوقت كان يشعر بكآبة مرة لها اسبابها كآبة مستسلمة خاضعة تجعل من جميع مظاهرها افعالا موزونة وأمينة بسبب إنقيادها كما لو أن كل فعل من افعالها خطوة محتومة لا رجعة فيها تيسر فى طريق محتم.

لقد كان الطقس مكفهرا متقلبا لا صحو فيه والسماء الداكنة المنخفضة لم تقرر بعد إنزال المطر الذى تشبعت به، وأحيانا كانت تهب بعض الرياح الرطبة فتدفع الهواء الثابت للحركة عندها لاحظ لوقا أوراق الشجر وهى تعود إلى البريق. بينما كانت الأتربة المسمومة وهى تصفر بين الحجارة القاحلة الجرداء لماشى الشوارع التى يسلكها المارة.

ولكن الريح كانت تتوقف حالا وتغال الشوارع المرصوفة بالحجارة جافة لم يبللها المطر المنتظر لقد كان الحر فى ذلك الوقت يشبه حالة لوقا الفكرية إذ أن كلاهما كانا متوافين فى انتظار شيء واحد فقد كان على المطر أن يهطل وعلى لوقا ان يقرر، ولكن شعر بأن السماء قد تسربلت بالغيوم لاجله لذلك لم يكن من الواجب أن يدفع عنها نظره كممثل لا يرفع نظره عن ممثل آخر تفوته لحظة دخوله المشهد.

إن أكثر ما يؤثر فيه وهو الشعور الذى يوحى له بالافعال العادية السير فى الشوارع، دفع قيمة بطاقة ركوب الترام، ذات الافعال التى قام بها خلال السنين الطويلة الماضية والتى لم يكن ينتبه أن يقوم باجرائها اذ كان مشغولا أثناء ادائها، بالأفكار المختلفة، أما اليوم فإن شعوره يتركز عليها لعدم وجوده لما يشغله فى حياته العادية، ولم يكن من الطبييعى أن تبدو له الأفكار السابقة المتباينة، كأنها أصبحت غريبة وغير معقولة، ومغابرة للمنطق بشكل غريب...

ولم يكن هذا الشعور الذى سيطر على تفكيره متعلقا بواقع الافعال وغاية الأمور، كتردد على المدرسة مثلا، فلقد سبق أن رأى هذه الأمور غير المنطقية كتلك الافعال التى يمارسها كل على حدة... لماذا يحرك قدميه ؟ لماذا لاتداهمه سيارة وتدهسه، لماذا يتوقف لكى يصلح رزمة كتبه تحت ابطه وهو متجه الى المدرسة أو عائد منها ؟ لماذا يضع قبعته على جبينه، ولا يتركها تظهر قسما من رأسه ؟.

لقد كان واقعه يبدو وكأن هذه الأشياء العادية قد جرى تصغيرها إلى مغلف رقيق من العادات الآلية اوشكت أن تتخلى عنه بعد أن ملها وضجر منها وتتركه نهائيا كما يتخلى الثعبان عن جسده أيام الربيع كان يدرك إن هذا الشعور غير مقبول، بل باطل من اساسه، مما لم يكن من المعقول حتى تلك الساعة، أن ينتهى من الطريق الطويل لثورته وعصيانه.

أما الوقت الحاضر فلم يبق عليه مما يجب فعله إلا أن يقوم بأنتفاضة صغيرة ويقدم على هزة خفيفة لتطير الفقاقيع المملة، وتكهن بأن هذه الهزة لوحدها وبدون شئ آخر كانت تشعره سلفا بحادث أوشك ان يقع.

وأمام المعهد كانت جمهرة الطلاب السوداء تقل بلمح البصر إذ أن فم البوابة الخاصة بالدخول التى أكل عليها الدهر وشرب، لم يتمكن أن ينقطع عن التفكير ذلك التفكير الذى بدا له بأنه طبيعى وميسطر على حواسه بطريقة استبدادية غير مألوفة.

كانت اجواء المعهد تبدو مظلمة، أو بالكاد فيها الضوء الضئيل بينما يندفع سيل الطلاب إلى الداخل، ليفرق البناء وبدا للوقا ان هذا السيل العارم يشبه الطوفان وإن جميع رفاقه يغذون نفس الشعور الذى ينتابه.

ولما وصل إلى باب حجرة الصف الخاص به، دلف إلى مقعده فى نهاية الغرفة، والقابع بين خريطتين جغرافيتين أما خطوط المقاعد الثلاث التى يجلس عليها الطلاب بإزدحام والمنبر الذى يقف عليه المعلم، فكانا يوحيان بصورة الطلاب وهم مصغين الى الدرس، وثورة المعلم وهو يقوم بالقائه.

كل شىء كان قد أعيد تأسيسه وترتيبه فى الصف : فلوقا فى مكتبه ورفاقه جالسون كل فى مكانه رغم إنهم كانوا يتدفقون فى الدخول إلى الصف بازدحام بينما المعلم كان قد وصل إلى المنبر لايزال شاغرا، ونتيجه العتمة المتأتية من رداءة الطقس - اشعلت الكهرباء فعكست على الواح الزجاج الرسخة للنوافذ الكبيرة خيوطا رقيقة صفراء صادرة عن المصباح الكهربائى.

جلس لوقا فى مقعده، وجلس حوله رفاقه، كل واحد فى مكانه المخصص له ولكن شعور الآلية غير المعقولة عاوده، وشعر برغبة ملحة ليقوم بحركه ما ويعرف ما الذى سيفعله رفاقه من جراء هذه الحركة.

ودخل معلم اللغة الإيطالية وهو رجل قصير القامة شاحب الوجه اجعد الشعر يعتنى بهندامه، وعندما إجتاز الباب، راح يزرع الغرفة جيئة وذهابا وبعد أن جلس وراء المنبر فى مواجهة الطلاب، والذين وقفوا تحيه لأستاذهم ودوى صوته القوى :

- جلوس...

عند ذلك وتلبية لشعور لوقا الخطر والمسيطر عليه، الذى يطالبه ببدء اللعب ظل واقفا خلافا لبقية الطلاب الذين جلسوا.

وكان المعلم قد جلس هو أيضا وهو يفرك أصابعه، ثم سحب من احد جيوبه منديلا نظيفا، مسح به وجهه واعادة إلى جيبه مرة أخرى وسوى جلسته ليكون فى وضع أكثر راحة.

فعل كل ذلك دون أن يرفع نظره عن السجل المفتوح فوق المنبر فاستحوذ على تفكير لوقا، لو إنه فى مكان المعلم لشعر بتسلط لايحتمل تجاه التلاميذ ولاسيما فى ادائه لهذه الحركات التى تتجدد يوميا، وتتعداها بشكل تلقائى إلى حركات، أخرى مماثلة لها.

ومع ذلك فقد ظل لوقا واقفا، أما المعلم بعد أن فحص السجل جيدا، ثم نظر الى الصف فرأى لوقا واقفا.

فسأله بهدوء :

- ما الخطب يا بنى ؟

سأل لوقا نفسه فى صمت :

- هل أجيب أم لا لزوم لجوابى.

وبعد ذلك قال بصوت واضح لمعلمه :

- لا شىء...

فقال المعلم :

- إذا أجلس ما دام الأمر كذلك.

كان للمعلم قبيح النبرات، ولكنه واضح ورغم ذلك فقد علم الطلاب أنه كان يلتذ بالاستماع إلى نفسه وهو يتكلم.

ورغم ذلك ظل واقفا دون أن يفتح فمه ويتكلم، فتطلع إليه المعلم بدهشة خفيفة ثم كرر له قوله :

- هل سمعت ؟ أجلس.

صمت جديد إلا أن الصف بكامله فى تلك اللحظة كان يتطلع إلى لوقا بتعجب مشوب بالفضول. أما المعلم فقد حدق فى لوقا وتطلع إليه بنظرة ثاقبة ثم أضاف بصوت أهدأ من حدته :

- هل تريد أن تقول شيئا ؟

فأجتاحت الصف نظرة من الاشمئزاز إلا أن المعلم نظر إلى لوقا بدقة خلال لحظة ثم وبدون أن يقول شيئا عاد إلى السجل وتطلع فيه ثانية ليستعيد اسماء الطلاب الذين كانوا لم يتكلموا أبدا أمامه.

كان الدرس حول (المطهر) وكان من عادة المعلم أن يكلف أحد الطلاب الذين كانوا يتمتعون بموهبة الالقاء بصوت عالى، أن يقرأ الفصل أو جزء منه وبعد ذلك كان يأتى دور التعليق واختيار الطالب لمعرفة مدى حفظه لدراسه.

سارت أصبع الاستاذ على السجل بمحاذاة العمود المسجل فيه أسماء الطلاب فتأكد لوقا حينذاك انه سيكون الطالب المعين لقراءة الرموز وذلك لعدة أسبب :

أولا : إنه كان يقرأ جيدا وله إلقاء قوى.

ثانيا : لأنه كان قد مضت عليه مدة طويلة لم ينتخب خلالها للإلقاء والقراءة.

والسبب الأخير هو إنه قد قام بذلك الحادث لتمييزه عن مجموعة الطلاب الآخرين وجعله محط أنظار الأستاذ بعد أن رسخ هذا الحادث فى ذهن المعلم.

سارت أصبع المعلم بصورة واضحة على العمود الأول من أسماء الطلاب ثم توقفت عند بداية العمود الثانى وقال :

- مانسى لوقا.

فكر لوقا سماع اسمه بأنه كان هناك معلما آخر، لاردف بعد مناداته بفكاهة أو بكلمة ذات مغزى يجمع فيها بين المناداة والحادث، كجملة من هذا النوع.

- طالما إنك تتمسك بالبقاء واقفا لذلك تعال وأقرأ.

ولكن هذا المعلم كان جديا ولم يكن يحب المزاح أبدا لقد كان من جملة المعلمين الذين يحتقرون مهنة التدريس فيلقون محاضراتهم أو يعطون دروسهم للطلاب بكسل وبغير مبالاة. وهم يريدون حقيقة وهمية هى إن بإمكانهم أن يفعلوا خيرا من ذلك، والآن وبعد أن عين لوقا لتلاوة الدرس كان الموضوع يتعلق فيما إذا كان عليه أن يطيع هذه المناداة أو يعصيها.

وبالمجاملة قدم له أحد رفاقه "مجلد الكوميديا الآلهية" وقد فتحته مقدما على الصفحة المطلوبة.

قبل أن يلبى لوقا نداء المعلم فكر بأن هذا المعلم وهؤلاء الرفاق يريدون منه أن يعيش ويحيا وهنا عادت الى ذاكرته المربية وشعر بأنه قد أصبح قويا فى قراره، انه حاليا سوف يطيع ولكن ما أن يعود إليه شعور الطبع العادى لحركاته حتى يرفض الطاعة، لقد كان يفهم إنه فى حالة إعطائه العصيان صفة اللعب الآلى ستكون له قوة فى قيادة عصيانه إلى النهاية.

وأخيرا تناول الكتاب وغادر مقعده من الطاولة الأخيرة فى الزاوية البعيدة فى الصف وتوجه إلى المنبر.

لاحظ أن النهار قد انخفض بشكل ملحوظ، وبدأت بوادر المطر الغزير تسقط

بقطرات متباعدة فوق الزجاج فتتحطم إلى شاظايا مسائعة تلمع على الزجاج، ومن ثم قطرات أصغر بغزارة وسالت وهى تلمع وتزحف فوق الزجاج.

وهكذا وجد نفسه متجها إلى المنبر بهدوء ومعه الكتاب فى يده، ثم توقف لتوه كأن قدماه قد تسمرتا فى الأرض وثبت بدون حراك.

لقد ظل بدون حراك ونقاط المطر تخطط زجاج النوافذ بينما كان المعلم والتلاميذ ينظرون إليه علهم يفهمون السبب الذى من أجله توقف عن الحركة.

وسأله المعلم عندما طال وقوفه :

- نعم ؟ ماذا تفعل هناك... تقدم...

سأل لوقا نفسه كم من الوقت سيمكننى أن أقف، فى مكانى بدون حراك كما أن عليه الآن قبل أن يتناولنى القصاص والعقاب . ولكن هذا العقاب بالذات بدا له خير من الطاعة الآلية التى اعتاد، عليها، فالقصاص ينجلى طبع الحياة الصالحة بشكل واضح وبدون أقل إخفاء للنفاق أو تعرض للرياء.

ثم سمع المعلم يقول وهو يكرر فى الصمت المهين والمسيطر على الصف :

- إننى أكلمك... أجبنى... هل تشعر بألم ما ؟

وسرت فى الصف همهمة من التعليقات إلا أن المعلم قطعها بسرعة بضربة مسطرة على المنبر وهو يصرخ :

- هدوء...

وبعد أن حان الوقت أجاب لوقا بجهد عسير:

- لاشىء... لاشىء...

ثم شعر برجليه تقودان إلى المنبر الجديد وعادت الهمهمة وتبادل الطلاب الهمس

وللمرة الثانية فرض المعلم السكوت ولكن بدون أن يضرب بالمسطرة على المنبر وبصوت أقل شدة من الأول.

ثم تحول إلى لوقا وقال له باقتضاب :

إقرأ أبتداء من السطر الخامس والثمانين من الفصل الخامس.

فأحنى لوقا رأسه وابتدأ فى القراءة :

"ثم قالت أخرى سيكون من النعمى، لو أن هذه الرغبة تتم وتجذبك إلى القمة الشامخة".

لقد كان لوقا قارئا ممتازا، بدا على المعلم وهو يستمع إلى صوته المعبر إنه انفرج قليلا، كما وأن نفحة من المواساات خففت الأزمة ومرت على الطلاب فى الهواء المظلم.

وبينما استمر لوقا فى القراءة بصوت جهورى واضح كان لوقا قد تسلط على فكرة شعور جديد فقفز ان جاز لنا التعبير خارج رأسه متجها الى آخر الصف حيث فقفز إن جاز لنا التعبير خارج رأسه متجها إلى آخر الصف حيث المكان المحاذى للحائط. هذا المكان الذى كان ينظر إليه، والذى اعاد له الشعور برؤية الأشياء العادية وكأنها غريبة وتصفية شعور مؤلم وبنفس الوقت ضيق ولذيذ.

ولكنه أحس بأنه يقرأ بعنف وقسوة، وفق نفسية الشاعر وما تتضمنه من معان غريبة تتوافق جيدا ونفسية الشاعر من حيث الشعور الذى كان يحس به.

وتذكر جميع الأوقات والمناسبات التى واجه فيها بعين الرضى الرغبة بموت كامل شامل مجهول غامض وعلى إنفراد.

ثم أكمل القراءة فوصل إلى الأبيات الثلاثة التالية :

"هناك وحيث سيصبح الاسم بدون جدوى"

سأصل إليك والرقبة دامية

سأصل إليك مريضة الحنجرة

مدماة القدمين وقد صبغت بهما السهل

هناك حيث سأفقد النظر والكلام

لم يبق منى بعدها شيئا سوى الجسد الطريح.

شعورا مباغت من الشفقة الغامضة والمعذبة طغى على حنجرته، لقد شعر بشفقة نحو نفسه حركها لأول مرة عندما تخيل بأنه قتل ثم دفن فى الساحة المدورة من الحديقة العامة وإذا بهذه الشفقة تولد فى شعوره وتتركز فى ضميره كنداء إلى واجب مهم وحزين لابد من تلبيته ولايمكن التهرب منه.

ومع ذلك ظل يقرأ بصوت أقل ثباتا وعزما ولكنه مؤثر وأخاذ، وبنفس الوقت كان شعور الفكرة التى قام بها، يطغى عليه ويتمادى فى رغبته الملحة ليعلن العناد والعصيان، إلا أن هذا الشعور المتسلط عليه كان ممزوجا بشعور الشفقة الجديدة، ذلك الشعور المؤلم والمذهل بآن واحد.

قرأ بعد ذلك بعض المقاطع ثم سأل نفسه عما إذا كان لزاما عليه أن يثابر على القراءة أم يتوقف ليبدأ العصيان.

لقد كان يعلم جيدا بأن طرح هذا السؤال على نفسه معناه التوقف عن القراءة وبالفعل فبعد أن قرأ بيت الشعر، وردد المقاطع بجرس غامض من الشعر :

"حينئذ اختفى الوادى كما يختفى النهار"

توقف عن القراءة، كأنه عقل صامت كئيب.

واطبقت السكينة على غرفة الصف برهة وجيزة، ما لبث بعدها إن سأل لوقا قائلا :

- نعم ؟

وساد الصمت فى الصف ثانية على أثر ذلك صمت خاص بانتظار حدوث واقعة طارئة كان الجميع ينقلون أبصارهم من المعلم الى لوقا ومنه الى المعلم ولكن لوقا لم يعد يرى أو يسمع شيئا على الإطلاق لقد كان يفكر بأنه قد فقد الحياة.

ولكنه فجأة أحس بغتة بوجع حاد ثم سمع اسمه يلفظ فرفع عينه وحينئذ تدحرجتا دمعتين على طول خده فتطلع إليه المعلم بدهشة شديدة محتقرة وقال :

- هل لنا أن نعرف ماذا جرى لك ؟ هل تريد أن تقرأ أم لا ؟

فكر لوقا بأن من الواضح عليه أن يظل طالبا إلى النهاية حتى ولو رغب الموت فانتظر لحظة ثم سأل :

- هل لى أن أكمل الرواية ؟

وتعالت الضحكات والتعليقات من كل مكان فى الصف المعتم فأعطى المعلم إشارة لفرض الهيبة والنظام فى الصف ثم وجه حديثه إلى لوقا قائلا :

- ولكن حسب اعتقادك أين كنت ؟ ولكن على كل حال عليك أن تكمل القراءة.

كان لوقا لا يزال مضطربا وقد تناثرت دموعه فوق خديه وتوقفت فوق وجنتيه فزادته اضطرابا فقال فى سره :

- سأقرأ إلى نهاية الحادثة التى عرضت بالرواية لأن هذه هى قصة حياتى... ثم سوف أتوقف عن القراءة.

وجمع قواه وبصوت عال جعل نبراته أقوى وأوضح لاعتقاده الأكيد بأنه يقوم بقراءة

وصف لموته هو لاموت الشخصية التى وصفها دانتي وعندما بدأ تلاوة الأشعار بدا له إن المعلم ينظر إليه بفضول أكثر من الاستماع إليه ورفاقه بدورهم كانوا ينتظرون منه أن يقدم على عمل شاذ جديد أو أن يتهور ويتوقف عن القراءة مرة أخرى.

قرأ بدون صعوبة الجزيئين الآخرين من القصيدة وبعد ذلك حدث ما كان يتوقع حدوثه لدى وصوله إلى البيت الثالث :

"ثم قام بتغطيتى ونظر إلىَّ بشفقة".

إذ توقف عن القراءة من جديد.

وفى هذه المرة أنفجر الصف بكامله بضحكات مسرورة وإن كانت ناتجة عن الدهشة لهذا التهوس والعصيان السلبى، فحاول المعلم تهدئة هذا الشغب بأن وجه الحديث إلى لوقا وقال له بصوت عادى :

- يبدو إنك مريضا... ألبس معطفك وعد إلى البيت... سأبحث هذا الموضوع بعد بضعة أيام.

وأراد لوقا أن يخبر المعلم بأنه فى أحسن الأحوال ولكنه شعر ببرودة تجول فى جسده وقد لحقت بها نفحة حارة صدرت من داخله بينما البرد يسيطر على جسده فيرتجف وفهم بأن المعلم كان بدون شك محقا فى طلبه مغادرة الصف والذهاب إلى البيت.

وفكر لوقا محللا موقفه من خلال نظرة رفاقه ومعلمه، وحكمهم عليه بقبولهم أو رفضهم لموقفه، فإما أن يعتبروه شخصا مريضا أو تلميذا يستأهل العقاب، استحوذ هذا التفكير عليه واستولى على عقله وهو يتناول الكتب التى جمعها رفيقه وقدمها له باهتمام مشفق واستغراب فى آن واحد معا.

كان الجميع ينظرون إليه بصمت والمطر ينهمر بغزارة على زجاج النوافذ ولم

يتمكن لوقا لدى رؤيته لهذا المطر وهو يتساقط من أن يقول لنفسه بأن هذا هو المطر ذاته الذى رآه فى مخيلته يغلف جسده ويلفه ومن ثم يطوح بهذا الجسد الذى لاحراك فيه.

وبينما كان يأخذ كتبه ويتأبط محفظته ثم يتوجه نحو آخر الصف، التفت حوالى ثلاثون رأسا توجه نظراتها إليه وهو يغادر المكان .

ونادى المعلم على تلميذ آخر ليتولى القراءة بدلا من لوقا.

بينما تناول لوقا معطفه وخرج من الصف.

وإجتاز بسرعة الممر وخلال الابواب المفتوحة فى صفوف أخرى كانت هذه الصفوف والطلاب عليها وهم ينصتون إلى محاضراتهم التى يلقيها عليهم أساتذتهم بكل إنتباه لقد كانت أصوات المعلمين كلها تتشابة فى أذن لوقا الذى هبط الدرج ووصل إلى عتبة الباب فوجد نفسه بغتة فى طراوة رطبة.

لقد كانت السماء تمطر سيولا شديدة والطرق أصبحت شبه جداول والرياح أضحت مخططة وخلال هذا البياض بيضاء وهذه الخطوط كان من حين إلى حين آخر يلمع ضوء البرق ساطعا مضيئا، لقد سمع هزيم الرعد من بعيد ثم سمعه من مكان أقرب مع جلبة مدوية وطويلة صادرة عن إنهيار الثلج الذى انتهى بضياء باهت كان يعطى الأشارة للمطر بعنف متجدد وأنئذ ترك لوقا الباب الخارجى وبدأ السير وهو حاسر الرأس تحت الطوفان.

وبدا له بأن المطر قد يدل المدينه بكاملها إلى مجموعة أنهار وسيول إلى ماء عمودية رمادية ترتفع حول البيوت إلى مياه صفراء تمور حول مماشى الشوارع كما جول خيال المارة غير المستقر الذين كانوا يركضون ليلتجأوا تحت الشرفات إلى طيف نائى مرتجف أما مصابيح الغاز فقد كانت تبدو كأنها تتمرجح لكوانها سوداء ورفيعة، وعربات الترام تعتم ببقعها الخضراء نهاية الشوارع.

كان المطر يهطل من إحدى الجهات ثم بعد أن يتغير إتجاه الهواء يصب من ناحية أخرى وهكذا حتى كاد المرء يعتمد بحتمية هذه العادة وان المطر يهطل وفق منهاج منظم شعر لوقا بالماء يغمر شعره حتى لقد أصبحت الكتب التى كانت تحت إبطه مبللة بالماء. وفى أثناء الطريق وضع رجله فى بركة صغيرة فوصلت المياه إلى كعب رجله.

ومنذ اللحظة التى غطست فيها رجله فى الماء شعر بكراهية وعدم رضى على أثر كل خطوة يخطوها لأن قدمه كانت تخوض المياه الموحلة التى ملأت حذاءه وهكذا كان يسير على مهل فى الماء وتحت سيل المطر المنهمر وصل إلى بيته.

وما ان وصل إلى غرفته حتى إرتمى فوق سريره وهو يرتعد من البرد وترتعد معه جميع أعضائه، وهذا الارتعاد هزه كليا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وراحت اسنانه تصطك فى فمه محدثه صريرا عاليا وبقساوة كأنها أحجار النرد ترمى بعنف على طاولة الزهر.

كان يشعر بأنه محموم يرتعش بكاملة من البرد ولكن بنفس الوقت شعر بحرارة قوية بدت له كأنها تزيد قوتها لضعف ما هى عليه بفعل الجليد وإن هذه الحرارة المزوجة بالجليد تطوف بكامل جسمه وتغزو وجهه.

ثم سمع صوت باب غرفته قد فتح ولكن لم يتحرك إذ أنه كان متمددا على ظهره، رأسه فى أسفل السرير وقدماه فوق المخدة.

ودخلت عليه والدته وقالت له وهى متفاجئة من وجوده :

- ماذا تفعل هنا ؟ ماذا أتى بك ؟ أليس من المفروض أن تكون بالمعهد الآن ؟

أجاب لوقا مكرها :

- اعتقد بأن الأمر على غير ما يرام.

وبعد ذلك شعر بيد والدته تلمسه على جبينه ثم وهى تصرخ :

- ولكنك تحترق... يجب أن تنام الآن فورا.

وفى تلك اللحظة دقت الساعة فى المذياع معلنة انتصاف النهار.

الفصل الثانى عشر

وظلت الحال هكذا إلى أن استيقظ لوقا ذات يوم فوجد امرأة جالسة بجانبه وهى تحاول لمس جبينه بيد وتسقيه باليد الأخرى.

امرأة لم يكن يعرفها، وتأكد له إنها بصورة أكيدة لم تكن شخصية من الشخصيات التى كان يهذى بها فى مرضه الشديد. لقد كانت امرأة من لحم ودم وليست من بنات أفكار المرض اللعين.

لقد بدت له وقد أحاطت رأسها بشريط أبيض يبدو تحته الوجه الأسمر المتعب ولكنه وجه لطيف، وجه امرأة ناضجة وقد اعتنت بمظهرها وبمحاسنها جيدا، لقد كان هذا الوجه مستقيما يعلوه غرور العصفور على رقبة طويلة مدورة، وعندما لفظ لوقا جملة مبهمة من هذيان المرضى لا يتذكرها يشكرها فيها غزت عينى هذه المرأة اللامعة والغارقة فى بحر من الجاذبية شعلة من الاستئناس المؤثر بينما أفتر ثغرها العريض عن ابتسامة منطلقة، تنم عن فرح وسرور لقد كانت تلك الابتسامة مؤثرة نابعة من القلب أظهرت اسنان بيضاء نظيفة.

ولقد علم إن تلك المرأة لم تكن سوى الممرضة التى أحضرها والده لكى تسهر على تمريضه والذى اعتقده فى أول الأمر شريطا أبيض لم يكن سوى قماشا أبيض تسرب إليه ضوء النهار وبجانب سريره وجد سترا منصوبا كان يوجد فى غرفة الاستقبال وبدا له إن وراء هذا الستر سريرا منصوبا لشخص.

قام لوقا بحركة تشير إلى أن ضوء النور يبهر عينيه ويزعجه فقامت المرأة على الفور وذهبت إلى النافذة لتحجب النور المتسرب منها، كانت تلبس ثيابا بيضاء تلفها بالبياض من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وتبين للوقا أن رأسها كان رقيقا وناعما يشبه رأس العصفور الشرقى إلا أنه تخينا من جراء ياقة القميص الذى ترتديه.

وبعد أن انزلت الستائر لتغرق الغرفة فى الظلام، عادت لتجلس بجانب السرير ومدت يدها لتسند رأس لوقا إن يديها كانتا طويلتين سمراوتين وأظافرها كانتا مطلية باللون الأحمر الوردى وهى تلبس فى أصبعها خاتما صغيرا مزينا بفص أحمر قان.

عند ذلك بدأ ضباب الهذيان يتشتت ويتبدد شيئا فشيئا، ورغم أن لوقا ظل فى حالة إنحطاط فى القوى وضعف مميت يلازمه انخفاض فى درجة الحرارة فقد تمكن من تفهم وضع شاذ فريد وجديد كليا بالنسبة له، لقد بدت له جميع الأشياء فى غرفته مكسوة بحلة جديدة، فالمربية مع كل ما بها من نضوج وتشويه فى الهيئة وغرفته القديمة وجميع الأشياء التى تحتويها الغرفة أحس لوقا وشعر بأنها جديدة نظيفة رائعة ومحببة وبكلمة واحدة لقد كانت شبهة تفيح النفس وتملأها بالامل.

كانت المرضة امرأة جميلة ناضجة، ولكن نظرات لوقا استطاعت أن تخترق حاجز الماكياج وأن تشاهد أن هناك بعض التجاعيد التى لم تستطع أدوات التجميل أن تخفيها عن عينه... وأحس لوقا برغبة فى أن يمد يديه ويتحسس ذلك الوجه الجميل وكأنه يتحسس نوعا من الفاكهة لذيذة الطعم.

لقد فكر لوقا بأن هذه السيدة ربما كانت جميلة جدا فى شبابها وكم قسى عليها الزمن وكم جنى عليها ذلك الجمال الريان. إلا أن هناك إمارات تدل على إنها سيدة غنية وحرة وإن كانت تمارس مهنة التمريض فلأنها فيما يبدو لديها كميات كبيرة من الحنان.

ولكن بدا له بأن الميل الطبيعى الذى يشعر به نحو هذه المرأة لم يكن مستمدا من أصل غرامى أو عشق كالعشق الذى أحس به سابقا نحو المربية، وبالفعل فلقد كان نفس الشعور الذى أحس به سابقا نحو زجاجات الدواء حتى إذا نقل نظره من هذه المرأة وتطلع الى الغرفة شعر بأنه يحس بهذا الميلالطبيعى نحو الأثاث الذى لم يعد يزعمه بل أصبح أليفه الهادىء الذى يشبه فى وجوده الثابت قدامى الأصدقاء المحبين.

وبلغت دهشة لوقا ذروتها عندما قامت المرضة بغسل وجهه بعد أن فرغ من تناول الطعام، وأخذت الطبق الذى كان يأكل فيه وذهبت لتضعه على المائدة أمام النافذة، وبعد أن قامت بعملية تنظيف المكان من بقايا الطعام غادرت الغرفة لتعود من بعد قليل وهى تحمل بريقا من الالمنيوم مملؤ بالمياه الساخنة مع قطعه من الصابون وبعد أن وضعت الابريق بجانب السرير جلست بجانب لوقا ورمت قطعة الصابون فى الماء.

وبينما أصابعها الخفيفة تغسل وجه لوقا بالماء والصابون ومن ثم تمسح وجهه على مهل بقطعة من الاسفنج مبللة بالماء العذب الفاتر، شعر لوقا أنه اكتشف ما لايدرى كنهه من الكياسة واللطف والزلل فى خديها السريعى العطب.

وعندما أنتهت المرضة من غسل وجهه وتنظيفه، رجته أن يمسك بالمرأة، بينما تقوم بتصفيفه وبينما هو يرنو بوجهه إلى المرآة شاهد وجه المرضة الشاحب الهزيل من خلال المرآة التى يمسكها ثم تملكه تعجب شديدمن الشعور الذى تملكه عندما رأى وجهه فى المرآة فلقد رأى وجها قد أضنته الحمى وبدت له جفونه وقد كسرها السهاد، أما تقاطيعه فكانت تبدو وكأنها غارقة فى خضم حمى المرض والهذيان، مشابهة ضباب عاصفة هو جاء لمشهد قد عصف به الريح وبدل معالمه.

لاحظ بأنه يشعر بحب هذا الوجه، وجه مراهق ينظر إليه بعينين مفكرتين، لقد لاحظ إنه فى نظرته إلى ذلك الوجه نفس الحب الذى شعر به نحو المرضة ونحو جميع الأشياء الأخرى ولكنه وقد تذكر البعض الذى غدا مضى نفسه بدا له هذا الوجه مهما فى هذا البدل.

أنتهت المرضة من تمشيط شعره وشاهدها وهى تقوم بفرقه، ولكن لم يشك لحظة فى إن تلك السيدة تحاول أن تفرض دوقها العام إذ أنها كانت تجهل إنه لايفرق شعره، ولدهشته فإن الشكل العام كان جميلا، وكانت شيئا جديدا محببا وشعر بالجميل تجاه المرضة التى قامت بفرقه.

وبعد أن تناولت الفوطة من فوق السرير خرجت، ثم عادت بعد لحظات وجلست كما هى عادتها، خلف الطاولة الصغيرة الكائنة بالقرب من رأس السرير وهى تحمل كتاب فى يدها ومن خلال الحركة الأليفة الهادئة بدت الغرفة كأنها مشحونة بجو من السرور الهادىء اللطيف.

قال لوقا بعد أن ظل مدة طويلة صامتا بدون حراك أريد أن أجلس فوق السرير.

وقالت الممرضة :

- إنتبه لكيلا تصاب بالبرد.

وبعد أن أجابت خرجت من الغرفة ثم عادت ومعها وسادتين ثم إنحنت فوق ظهر لوقا وهى تساعده على الجلوس فى سريره وقد دفعت بالوسادتين وراء ظهره... وهذا المجهود وحده كان كافيا بالنسبة إلى لوقا ليشعر بالآم حادة ودوار يعترى رأسه... بعد أن أصبح زائغ البصر والنظرات كما لو كان على استعداد للتقيؤ.

وبعد أن ساعدته فى الجلوس وتأكدت بأن جلسته الجديدة مريحة عادت لتجلس فى مكانها المعتاد.

وبعد لحظة سألها لوقا :

- كنت مريضا جدا، أليس كذلك ؟

- أجابت الممرضة :

- أجل مريضا جداً.

- كنت أرغب فى الموت.

قالها بتلك الكلمات الصادقة الصريحة.

فقالت الممرضة وداعبت شعره بيدها ثم حدقت به وهى ترنو إليه بنظرة مداعبة:

- ولكنك ستشفى الآن.

قالت ذلك بنبرة لطيفة.

فنظر إليها لوقا من خلف جفونه التى داعبها الكرى ولم ينبس ببنت شفة.

- ولكنك ستبرأ إذا كنت مطيعا تقوم بكل ما يجب عليك أن تفعله.

وبدون أن ينبس كلمة تناول يدها وبدأ يقبّلها على مهل كأنه يفكر وقد اغرورقت عينيه بالدموع الغزيرة.

الفصل الثالث عشر

فى أمسية من أمسيات نقاهة لوقا، وقد أوشكت تلك الأيام أن تأتى إلى نهايتها وبعد أن تعب من القراءة أخذ النعاس يداعب جفونه، وقد أراح رأسه على الوسادة وظهرت له الممرضة على عتبة الباب قائلة له ويبدو على مظهرها إنها سعيدة بالحالة التى وصل إليها لوقا وقد تماثل إلى الشفاء.. وقد كان مظهرها ينبىء عن مظهر إنسان سوف يسوق لك الأنباء السارة وقالت :

- استعد يا لوقا لكى تأخذ حماما بعد تلك الغيبة الطويلة عن الماء.. إن البانيو على وشك الأمتلاء بالماء الآن... وبعد لحظات يجرى هذا الماء على جسدك... يالها من فترة طويلة لن تشاهد فيها الماء، أليس كذلك يا عزيزى لوقا ؟

فسألها لوقا بدهشة :

- أستحم ؟ ولكن ألا أصاب بالدوار وأنا لم أشف بعد... إننى أحس بالضعف ؟.

فأجابت المرأة بلهجة من تعود اصدار الأوامر والطاعة :

- لاتخف.... سأكون بجانبك ولا تخشى الوقوع فلسوف أسندك كى لاتقع.

وبدأت المرأة فى الاستعداد وتهيئة المكان بالحمام... وأخذت تغادر الغرفة لتعود إليها بحركات وخطا مضبوطة لمباشرة تلك العملية التى تعودت وتمرست عليها وهى الممرضة التى تقوم بعملها على خير ما ينبغى... تلك الحركات التى تخالف بل وتعاكس حركاتها وتصرفاتها كامرأة فى المجتمع، وعلى كل فقد بدت للوقا - وهى تعد لوازم الحمام- إنها مسرورة من هذه الخطوة الجديدة له وهو يتماثل الشفاء، اما هو فكان يشكر لها ذلك الجميل الذى اسدته إليه وسهرها لراحته طوال فترة مرضه.

ولكنه فكر بنفسه بعد أن أنفرد بنفسه فى حجرته إنه ليس أكثر من مريض بالنسبة لها. مريض من مئات الذين ألتقت بهم تلك السيدة طوال عملها على مر السنين التى مارست فيها تلك المهنة حتى شفائهم، وليس من الأسباب ما يجعلها غير مسرورة لهذا الشفاء الذى يمنى بالنسبة إليها الاستغناء عن خدماتها، ولن يبقى بالتالى من موجب لدفع راتبا نظير أتعابها.

خرجت الممرضة من حجرته ثم عادت إليه وهى تحمل برنسا للحمام مدته على المدفأة لكى يبدو ساخنا بعض الشىء، ومن ثم توجهت نحو دولاب ملابسه وفتحته وتناولت روبا دى شامبر مصنوعا من الصوف كانت والدته قد قامت بشرائه خصيصا له لكى يلبسه عندما يتم شفائه، ثم وضعت الروب على مقعده الذى بجانب السرير كما وضعت على الأرض جواربه ثم قالت له :

- إنه سيكون حمام لذيذ وساخن وسترى إنك شعرت بتحسن ملموس.

لفظت الممرضة هذه الكلمات وكأنها تحدث نفسها، إن نبرات صوتها كانت تتحدث عن السعادة بضرب من الغفلة الطبيعية الودودة، كما لو كانت بالفعل نابعة من قلبها ولم تقلها لتسر بها لوقا فقط، وبعدها خرجت من الغرفة، وقد تركت الباب مفتوحا.

كان الحمام بالجهة الثانية من الممر، والمسافة بينه وبين غرفة لوقا قريبة بحيث أن لوقا كان يسمع بوضوح إنسياب الماء إلى البانيو وتغيبت الممرضة مدة طويلة كما كان لو انها كانت تنتظر إمتلاء البانيو بالماء الساخن، ثم وعلى حين غرة ظهرت فجأة وكانت تلهث وكأنها عادت لتوها وهى تقول له :

- هيا... هيا... لاتكن كسولا فالحمام جاهز... عجل بالنهوض من الفراش.

ولا خلاف فى أن لوقا لو كان بغير هذه الحال لاعتراه الخجل من الوقوف ببغضه فى الماضى وينفر منه غدا الآن يتقبله بكل رضا وسرور.

عندما رفعت الممرضة الأغطية من السرير، وجلس فيه شعر برأسه يدور به وإن الدم قد زايل وجهه، على حين طلبت الممرضة وكانت تقف أمامه ويداها تحملان له الروب دى شامبر، ولكنه دون أن يفكر بمغادرة السرير، تأخر بتنفيذ رغبتها وهو فريسة سوء انحراف المزاج وقد جلس على حافة السرير متدلى الساقين أصفر الوجه.

أما الممرضة التى فهمت ما يدور بخلد لوقا، فقد رمت بالروب دى شامبر وتوجهت اليه قائلة :

- إنك فيما يبدو تحس بالضعف وهذا طبيعى... أنتظر فلسوف أساعدك على أن تقوم من السرير... اتكىء علىّ.

قالت له ذلك ثم تقدمت منه... وهى تحيط جسده بذراعها القوى على قدميه وخلال اللحظات الأولى شعر لوقا بأنه لايستطيع الوقوف على قدميه وإنه يحس بالضعف والهزال يجرى فى جسده.

وظهر ضعفه وكأنه فراغ يحاكى أقدامه، ولكن بدون أن يكون له أية مادة أو شكل ليدعمانه .

وقالت له الممرضة بتلك اللهجة الآمرة :

- الآن أليس روبك... يا لله عجل يا رجل...

ولم يدر بنفسه إلا وهو يخضع لتلك المرأة ويعطيها يده لكى تدخلها إلى اكمام الروب العريضة وهو يقف بلا حراك ولكن الممرضة كانت أثناءها تلف جسده بذلك الروب السميك وهى تقول له :

- والآن سر ولاتخف شيئا... لاتخف أنا هنا معك...

وكانت تمسكه من قامته، وسار لوقا بضع خطوات، إنما خطواته الأولى منذ أن

داهمه ذلك المرض وكان بطنه يلتصق ببطن الممرضة التى كانت تمسكه من خاصرته، كانت علامات التردد والشك تظهر على وجهها ممزوجة بأمارات الإخلاص فى آن واحد، وكان القوة والعزم اللذين كانا يتقصانه قد استمدهما من مظهر هذا الوجه ومن تماس تلك الذراع القوية التى تحيط خصره، فشعر أن كل خطوة من الخطوات التى تخطوها قدماه قد انتعشت وأخذت عزما وثقه منها، كان ذلك العزم وتلك الثقة يسريان فى أوصاله ويصلان الى ساقيه وسائر جسده ويسبغان عليه شعورا جديدا ولذيذا مفعما بالأمان والطمأنينة.

ونفس الشعور الذى أحس به لدى رؤية أثاث غرفته الجديد، وأعجب بذلك الأثاث عندما فاق من غيبوبته وكابوس هذياته، أحس بذلك الشعور يراوده من جديد وأحس فجأة إنه مشتاق إلى هذه الأرض التى يسير عليها، وأنه يتعافى اكثر فأكثر كلما سار عليها وقال وهو يحاول التنفيس عما يجول فى خاطره :

- قد يكون من الجائز أننى ضعيف القوى، كما بدا لى ذلك فى أول الأمر.

فأشارت الممرضة برأسها موافقة على ذلك وهى لاتزال تحيطه بساعدها، وخرجا من الغرفة متشابكين فبدت عليه الطمأنينة ونظر إلى الشقة وعلم أنها كانت خالية من الظلام الذى يسيطر عليها والصمت المهين على الممشى.

ومن ثم دخلا إلى الحمام سويا، ولوقا مازال متشبثا بها، وبعد أن أجلسته على مقعد الحمام الصغير أغلقت الباب عليهما.

كانت الحرارة فى غرفة الحمام خانقة تشبه الحرارة المنبعثة من الحمامات التركية والحوض قد امتلأ بالماء المتدفق من الصنبور وأغلقت الممرضة الماء وأخذت الصابون ووضعته فيه.

ورغم أن لوقا فى قمة الارتباك ولم يدر ماذا يصنع فقد خلع الروب دى شامبر فأخذته الممرضة وعلقته على المشجب القريب من الباب وعندما لم يبق عليه من

الثياب سوى البيجامة فكر بأن عليه رجاء المرضة أن تغادر الحمام ولكنها بم يبدو عليها أدنى اهتمام بحالة لوقا النفسية التى تسيطر عليه نتيجة لوجودها معه فى الحمام ولم تلاحظ الارتباك الظاهر عليه فقرر لوقا أن يقوم بما تمليه عليه دون أن يناقشها فى ذلك أو يعارضها.

وبلهجتها الآمرة قالت :

- عليك أن تخلع ثيابك وتدخل إلى الماء وبعد ذلك سوف أقوم بارغاء الصابون عليك.

وبتلك الطاعة العمياء سمح لوقا للممرضة أن تخلع له سترة البيجامة وعندما إنحنت لتقوم بخلع السروال والحذاء الذى يرتديه انتصبت حالا وقد أحمر وجهها، فاعتقد لوقا بأن هذه الحمرة كانت نتيجة الجهد الذى بذلته لتنحنى وتخلع له القسم الاسفل من ثوب الحمام.

مكث لوقا برهة مترددا أن يدخل الى الماء رغم كونه قد أصبح عاريا لايستر جسده شىء من الثياب ولكن شعر مرة أخرى بأن الذراع القوية للمرأة تحوطه بلطف وتدفعه إلى المغطس. كان قد وضع جسمه فى الماء رويدا رويدا.

وسألته الممرضة وهى تنظر اليه بنظراتها الثاقبة :

- كيف تشعر الآن ؟

فأجابها لوقا :

- إننى ضعيف جدا.

والحقيقة أنه بينما كان يستحم فى المياه الساخنة لم يدر كيف شعر إنه فى حاجة إلى الغثيان ورغم ذلك قالت له الممرضة :

– يجب أن تقف فى المياه الساخنة بينما أقوم بتدليك جسدك بالصابون... ومن ثم تقوم أنت بغسل جسدك بنفسك وتخرج من الماء فورا لأن الحمام إذا طالت مدته فإنه يضرك خاصة وأنت مازلت ضعيفا بعد.

فنظر إليها لوقا، ثم تطلع الى نفسه وهو فى المغطس فتراءى له جسده يتماوج مع الماء والهمه ذلك شعوره بالمحبة، وكما أحب وجهه منذ وقت قليل، عندما نظر إليه فى المرآة ولأول مرة بعد أن شفى من مرضه أحب جسده وعشقه بدافع من شعور غامض.

وقال إلى المرضة :

– ليكن ما تريدين...

وأخذت المرضة تدلك جسده بالصابون بحمية ونشاط حتى إنتهت من عملها.

وقالت له :

– الآن عد سريعا إلى الماء...

وبطاعة عمياء إندس لوقا مرة ثانية الى الماء ليزيل آثار الصابون.

بينما خرجت المرضة من الحمام وعادت بعد لحظات وهى تحمل على ذراعها برنسا نظيفا، وقالت له :

– اسرع.... اسرع.... عليك بارتداء هذا.....

– فقام لوقا وتردد قليلا وقد قدمه على حافة المغطس ومن ثم خرج من الحمام وعلى الفور وضعت المرضة البرنس عليه فى نوع من التودد الدافىء.

وسألته :

– هل أحسست بالدفء أم لاتزال باردا ؟

أما لوقا وقد أحس بالدفء يغمر كيانه وأحس براحة لم يمكنه أن يمتنع عن ابداء بذلك الشعور الجديد وقال :

- أحس بالدفء.

وأردفت الممرضة قائلة :

- والآن عليك أن تجفف جسمك جيدا.

فجلس لوقا على المقعد الصغير بينما ركعت الممرضة أمامه وأخذت فى تنشيف جسده. كانت تقوم بعملها بكل جد واجتهاد وتستعمل مهارتها فى تجفيف جسمه. حتى أصبح وجهها مضرجا حمرة وضاءة زاهية.

فلقد كان يكمن فى ركعتها هذه احساسا غامضا من العبادة والعشق جعلت لوقا حائرا مضطربا موزع الفكر، وأحس لوقا إن الصدفة شاءت أن تجمع بينه وبين تلك السيدة فى شقة خالية وحيدين، وأن ما حدث منذ بضعة شهور خلت بينه وبين المربية، كان على وشك الحدوث الآن وعلى وشك أن يعيد الحدث نفسه مع فارق بسيط هو إنه آنذاك كان فى حالة فكرية مضطربة أما الآن فلسوف يرضى بما سبق له أن قام برفضه.

وبعد أن قامت الممرضة بعملها، أحس لوقا إنها أضاعت ما كانت تبذله من حيوية عندما أرتخت يديها وفقدت حماستها السابقة فى فرك جسمه إذ أن يديها أصبحتا مترددتين كما لو كانتا تريدان ملاعبته وملاطفته وبنفس الوقت كانتا تشعران بعدم جدوى تلك المداعبة.

كانت يداها تقومان بتنشيف جميع أجزاء جسده وظهر له بوضوح أن تلك السيدة كانت متمرسة على هذا العمل، إنها بغارة سريعة يجعلها الندم والسرعة وتبكيت الضمير خشنة وخرقاء تنقصها الحذاقة.

لقد كان لهذه الغزوات والهجمات المتكررة وطبيعة المرأة تجعلان الإنسان يفكر لكونها مبهمة وجشعة بنقرات العصفور الخائفة وبالتالى، فإن الممرضة قد أوحت الآن بشكل واضح لاشك فيه طبيعة الشعور الذى جعلها مضطربة الخاطر بعد أن أصبح وجهها كالجمر وهى تحنى رأسها كأنها تريد إخفاء عينيها.

وعندما حدق بها لوقا بدا بأنها تزداد حمرة بالتدريج، كلما أقتربت يدها من جسده وخلافا لما جرى قبل ذلك مع المربية لم يشعر لوقا الآن بأى رغبة فى التسلل والهرب من هذه المداعبات لقد بدا عليه بأنه أصبح لعبة بين يدى هذه المرأة وقد فقد كل إرادة تجاه إرادتها سوى أن يكون هادئا ومطيعا.

وأعلنت الممرضة :

– لقد أنتهى حمامك اليوم... يمكنك أن تلبس ثيابك.

فى الماضى كان من المستحيل أن يقبل بهذه السهولة والبساطة بدون نفور، أو بعض الغرور فى نفس الوقت، اضطرابات جسده، لقد صدف إنه شعر بثورة عارمة أبان أول إندفاعة كانت تحاربه وتسعى للسيطرة عليه أما الآن فسواء كان الموضوع يتعلق به أو يتعلق بالممرضة، سواء أكان يتعلق برغبته هو، أو يتعلق برغبتها هى، رغم أفعالها غير المنتظرة وتملصها من كل مراقبة يقوم بها، ورغم كل ذلك بدا له الاضطراب مقبولا لعدة أوجه ولحقيقة محببة كليا ومفهومة كليا.

كان شارد الفكر أخذت الدهشة بمجاميع لبه، عندما رجف وأهتز بدنه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه على أثر سماعه كلمات الممرضة التى كانت تقول له مكررة:

– إذاً هل ستقوم بارتداء ملابسك ؟

وبصمت وهدوء سمح لها أن تدثر جسمه بثياب النوم، وتلبسه البيجاما وتلفه مجددا فى الروب دى شامبر.

وسألته وهى تفتح له الباب :

- كيف تشعر الآن ؟

- ورد قائلا :

- جيدا.

وغادر الحمام وسار إلى غرفته وقال أثناءها :

- إننى أشعر بالضعف وللدوار.

وألقى بجسده بين يدى المرضة ليجد نفسه جالسا فى سريره وقد ملك عليه احساس أشعره بأنه يفيق من إغماءه مؤلمة.

وقاتلت له المرضة وهى تنضح جبينه بقطعة من القماش الرطب :

- لاتخف فليس هنالك ثمة شىء يؤلمك... أن الحمام يضعف الجسم دائما.

ولم يجب لوقا عليها. اما المرضة فبعد أن رفعت عنه الروب دى شامبر وكشفت الاغطية النظيفة شعر بلذة كأن الفضل فيها لهذه المرأة التى ساعدته وقالت له :

- حاول أن تنام الآن...

وبالفعل تركته وأغلقت الباب عليه وتركته وحيدا....

الفصل الرابع عشر

وفى خلال الأيام التالية لتلك الحادثة فى الحمام لم تشر المرضة من قريب أو بعيد كما أن لوقا لم يسر اليها ولم يحاول أن يتذكرها، ولم يكن ذلك إلى أن تلك الحادثة لم تكن تجد هوى من نفسه، أو لأنه لم يجد الفرصة المناسبة لتجديد تلك المناقشات الأولى وتتابعها، بل لانه كان يشعر كما يبدو له باستعداد تام للخضوع بصورة سلبية لا إرادية الشخصية الحرة.

وبالتالى كان يكفيه تفهم تلك التجربة، دون أن يهتم فيما إذا فشلت هذه التجربة فى بدايتها أو تكللت بالنجاح، أما وقد تأكد لديه إن المرضة ما زالت تفكر به فى جميع الأوقات، وتعيش على ذكرى واقعة الحمام، آثر أن ينتظر بفضوليته الملحة نتيجة تفكيرها.

وإذا ما حاول فيما بعد أن يحدد موقفه وأن يعرف احساساته الذاتية، لامكنه أن يلاحظ بأنه انجذاب مبهم، رغم كونه قويا كالذى يمكنه أن يشعر به تجاه أية امرأة كانت فبامكانه أن يدوم على تغذية شعور المودة لا لمرضة، ذلك الشعور المدرك المتجرد الذى أصبح يحس به ويمكنه لكل الناس ولكل الأشياء.

هذا الموقف فى الحالة الحاضرة كان يعلن عن وجوده بفضولية قليلة، ومع ذلك فهى صادقة لطبع هذه المرأة ولاجل ماضيها، فبالإضافة لاعتنائها به، تقوم بقضاء الوقت معه ومسامرته مما وطد الصداقة بينهما وجعلها خلين حميمين وعندما بدأت تخبره وتطلعه على تفاصيل حياتها وعن الاشياء الكثيرة التى صادفتها فى هذه الحياه، والعلاقات الغرامية التى ارتبطت بها وكيف قضت الكثير من أوقاتها مع تلك الحياة الطبية الرحيمة لمختلف الناس والطبقات.

وصدق حس لوقا فلقد كانت كما تصورها تنعم بحياة رغيدة فى شبابها ولما كان عليها ان تعيش بعد أن توفى زوجها عدة مهن كانت آخرها مهنة التمريض.

كانت فى بداية أحاديثها مترددة، تخفى بعض أقوالها، ولكنها عندما رأت أن لوقا لايظهر أية دهشة إنطلقت تحكى له لاتخفى عنه شيئا بل تحدثت معه بمنتهى الصراحة وتوصلت بالنهاية إلى الحديث معه بصورة جلية لا حياء فيها، ولكنها صورة خاشعة ومتأثرة هدفها الوصول إلى القلب الحنون.

كان جزءا من حياتها معظم النساء، حياة مليئة بالغرور والأخطاء وكانت هى بدورها كأى شخص عادى يعيش على هامش المجتمع، الذى حكم عليه بما يحكم على الأشخاص المنحطين بصرف النظر عن وصفهم وتحرى الحقائق عن حياتهم.

ولكن هذه الأخطاء وهذا الغرور لم تبد للوقا رغم مظهرها الشفوق الجديد معذورة فقط بل وجدها محببة إلى النفس، يعجبه منها صورة خاصة التلميح الذى كانت تستعمله المرأة مدعية أنها لازالت جميلة وفتية.

وهى لو لمحت إليه عن الماضى لبدا له مضحكا يستوجب السخرية،أما الآن فكان يبدو على العكس، خطا عنيفا من طبعها وهى تتحدث عن الجمال النسائى بينما كانت تسير فى الغرفة جيئة وذهابا، وقد انزلت قميصها على جسدها مما أضفى عليها مسحة من الوقار الجميل.

وقالت له :

– أنظر إلىَّ فرغم همومى وأعبائى الكثيرة إلا أنه كم من النساء ما زلن يحتفظن بجمالهن مثلى ؟

وراحت عيناها تلمعان ويداها تسيران على جسدها وهى ترفع رأسها بشموخ ولم يتمالك لوقا من الابتسام ولكنه سرعان ما تراءى له أن هذه الابتسامة كانت ابتسامة عطف وميل نحو تلك المرضة الجميلة.

- هل صحيح ما تقولين ؟

فأجابت الممرضة بقولها :

- نعم... ولكن ان ذلك ليس بذى اهمية.

ثم هزت رأسها واخفضت عينها وصدر آهة حزن وحاولت أن تمنع من عينيها الدموع التى كانت تتحدر وتسيل على خديها.

فقال لها لوقا :

- أنا أيضا اعتقد إننى أحببتك.. ولكن ذلك مرجعه إليك فى أول لقاء...

ولم يكمل كلامه بل نظر إلى الممرضة، وراح يمعن التفكير فى ذلك الكلام الذى قاله والكلام الذى قالته وعرف أن فيه الحقيقة، ولا شىء سوى الحقيقة، ولكن من أين أتته هذه الثقة التى خلت من المكر، وكأنها نابعة من قلب عاشق متيم ؟ إنه كان سعيد بتلك الثقة وكان مسرورا بها إذ اعتبرها قدرة جديدة تضاف للتعرف والاتصال بالغير.

وعندما رفعت الممرضة عينيها إليه سألته :

- وهكذا لو شئت ؟

فأوما لها لوقا برأسه موافقا على ما ستقوله.

لقد اعتقد أن هذه المرأة ستندفع فورا وتلقى بنفسها عليه ومن ثم فقد استجمع قواه واستعد لتلقيها بين ذراعيه، كما فعلت يوم ان كانا بالحمام ولكنه فى هذه المرة فى قوة وعزم صريحين وبدون أن يتخلل حركاتها أقل أثر من آثار الرياء أو المداهنة سأل عما سيكون عليه تصرفاتها ومسلكه.

فى تلك الأثناء كان والديه يتناولان طعام عشاءهما ولن يحضرا إليه قبل أن

تنقصى على الأقل فترة نصف ساعة، ولكن هل هذه المدة القصيرة من الوقت كانت كافية لكى يتحابا فيها ؟ ثم إنه من المعقول أن تفاجئهما والدته أو والده.

لقد خاف لوقا من الحب فى مثل هذا الوقت غير المناسب على الاطلاق ولذلك اكتفى بأن قال :

- ذلك اليوم فى الحمام... اعتقد إنك كنت تريدين... فلقد كان المنزل خاليا ليس فيه سوانا... أليس كذلك ؟

ورغم جميع ما كان ينتظره وما كان يتوهم أن يحدث فان الممرضة لم تجب على تساؤلاته بل إنها قامت من السرير ونظرت إليه عن بعُد، بعد إن مدت ذراعها ولمست خده ودغدغت وجهه وقالت :

- فى ذلك اليوم كنت مريضا... وضعيفا....

فكر لوقا بأن كلامها صحيحا ولذلك لم يقل شيئا بل اكتفى بأن هز رأسه موافقا.

وقالت له بحنان :

- إذا جئت إليك الليلة فهل تكون مسرورا ؟

رفع لوقا عينيه وقال لها :

- بكل تأكيد...

فسددت اليه نظراتها الثاقبة المستقيمة... وبدون حراك غمرته بعينيها اللامعتين الفتيتين والمختلفتين اختلافا كبيرا عن العيون القديمة الباردة المحرقة الجفون من كثرة استعمال الكحل. ثم وبنبرة سريعة الوعد قالت:

- إذاً... إذا كان يسرك ذلك بالفعل... فسأحضر إليك الليلة...

فأومأ لها لوقا برأسه موافقا.

واستطردت تقول :

- سأحضر... ولكن يجب أن تنتبه جيدا... يجب إلا تصدر صوتا.

وربما ان المرضة لم تعد منذ مدة طويلة تنام خلف الحاجز الذى فى حجرة لوقا فقد فكر بأن هذه الوصية كانت تبديها لنفسها وتحتاج إليها أكثر منه.

وأردفت تقول :

- إلى اللقاء بعد ساعتين يا عزيزى.

ثم تطلعت اليه خلال اللحظة اخرى كأنها تريد ان ترى ذلك التأثير الذى يخلفه وعدها اليه بملاقاته ومن ثم تناولت الصينية وانصرفت.

وبعد ان ظل لوقا قرأبة الساعة بمفرده امسك قصة غرامية واخذ فى قراءتها ولكنه لم يقرأ الا قليلا حتى احس بحرقة خديه كما لو كانت عينا المرضة المتوهجتين بالرغبة المحمومة قد احرقتا وجنتيه بنظراتها الثاقبتين.

بالاضافة الى انه لم يكن يفهم مما يقرأه شيئا.

كانت هذه الحرقة اللذيذة تشتعل وتضطرم بشعور من الحيوية العميقة الغور، التى لم يشعر بمثلها طيلة حياته، ولكى يشغل نفسه عن هذا الخاطر المتأجج المزوج بالاضطراب بدأ يفكر بالمسلك الخاص به تجاه المرضة والموافقة التى أبداها، شعر انه لم يكن بمقدوره ان يكون اكثر لباقة واخلاصا صادقا مما عليه حينذاك.

لقد قالت له بأنها تحبه، أما هو فقد اكتفى بأن يقول لها إنه مسرور من حضورها، وقد كمان ذلك حقيقة لامراء فيها، وفكر بأن مجىء هذه المرأة سيجعله مسرورا، كما كان يشعر منذ آفاق من هذيانه من أن جميع الحوداث التى تراءت له، وجميع

العلاقات الإنسانية تجعله يحس بسعادة لعدم شعوره نحو المرضة بشعور أبشع وأقوى، يختلف إختلافا كليا عن الشعور الذى كان يستوحيه من بقية الناس والأشياء.

وفى الحقيقة كان يشعر بجوع نحو هذه المرأة وهذا الجوع كان يجعلها مرغوبة، ولكن جوعه لها كان من نوع الجوع الذى يحس به تجاه الضوء الهادئ الذى ينبعث من ضوء المصباح الموجود على طاولة مكتبه، نفس الجوع الذى يشعر به تجاه الاثاث الموجود فى الظلام، نفس الجوع الذى يحس به تجاه الليل، تجاه الصمت المطبق فى الخارج والمهين على بيته وحتى نفس الجوع الذى يشعر به تجاه الصرير الخافت الذى يصدر من سوسة الخشب التى تقرض الخشب وتحفر لها ثقبا عموديا فى الطاولة، جميع هذه الأشياء كانت محببة لنفسه على مستوى واحد لأنها تبعث فى نفسه دافع الرضى والرغبة فى التمتع بها وهى بمجموعها تؤلف عالما خاصا بدا له فى النهاية جديدا ومقبولا.

وبدا النعاس يداعب جفونه، بينما هذه الأفكار كانت تهز مشاعره مسئولية على مجاميع عقله الباطن بين مد وجزر، وخلال غفوته المتأججة بين اليقظة والاستسلام للرقاد، قدم والداه لرؤيته عب ما تعوداه منذ أن مرض، وبعد أن قدما له النصح والارشادات واستفسرا عن صحته بينما كان هو يجيب عليهما بكلمات مبتورة غامضة، غادرا غرفته.

لقد نام لمدة طويلة نوما عميقا ولقد أفصح نهمه عن واقعه وما يشعر به من جوع ورغبة فى الأشياء والأشخاص معها، وتحت تأثير جوعه النهم وبإيحاء منه حلم حلما غريبا وفريدا من نوعه، إذ تصور نفسه قد تجسد على شكل شجرة عارية سوداء، تقطر بما تبللت به من هطول المطر عليها، وقد مد يديه التى هى بدورها فرعا الشجرة الباسقة، أما أصابعه فلم تكن سوى افنان دقيقة تمتد ظلالها فوق تلة جرداء قاتمة جمدها الجليد بينما هو يرتعد من وحشة السكون ولاذع الصقيع.

وقد احتاطت بها من جميع الجهات بقعة شاسعة المدى، تناثرت بها التلال،

من حركاتها بأنه قد قامت بهذا العمل فى حياتها أكثر من مرة ولوقا ينظر إليها بدون إرتباك او أضطراب ورأسه لايزال على الوسادة ويداه ممدودتان على السرير دون أن تأتى بأيه حركة، بل أكتفى بمتابعة حركاتها بفضول شديد كان بريئا وان حركات المرضة تشبه إلى حد بعيد حركات مجموعة من الممثلين المحترفين المدربين جيدا.

ولما انتهت من الترتيبات اللازمة أقتربت من السرير ووقفت تنظر بثبات إليه وتتطلع إليه بعينيها اللامعتين ثم رفعت عن كتفيها المعطف ووضعته على الكرسى بهدوء.

وإنحنت وهى تضع ذلك المعطف لكى يرى لوقا جسدها ويتأمله وأخيرا خلعت قميصها وفكر لوقا وقال فى نفسه إنها تقوم بدورها كما لو كانت ما تزال فتية وهذا ما جعله يسر. وعندما بدا لها أن لوقا قد تمتع من مرآها على هذه الصورة اندست إلى جواره وتمددت بجانبه.

وعند ذلك أمتلك شعور الغريق بأنفاسه وأيقن إنه فى بحر من اللذة التى لايعرف معناها ونظر إليها فوجدها فى اغماءة كأنها تمثال بارد.

وعندما سرت فى جسده تلك الرعشة كان شعور الترويج عن النفس كان ولايزال مستمرا ومهيئا لإعادة هذه المعانقة المتأججة بطراوة ولذة محببتين.

الفصل الخامس عشر

فى صباح اليوم التالى غادرت الممرضة البيت بعد أن تم شفاء لوقا كلية، وذلك حسب ما اخبرت به لوقا قبل أن يجتمعا معا فى ليلة من ليالى المتعة المحرمة، ولم يترك رحيلها أسفا لدى لوقا أو قرفا لديه، بل ترك شعور الشكر للمبادهة النهائية ليس تجاه الحب الطبيعى فقط، بل بصورة عامة تجاه الاشياء التى مكنته من هذا الحب الذى أضاء لعينيه السبيل عندما أفاق من هذيانه.

لقد بدا له إنه اكتشف فى النهاية وسيلة جديدة لرؤية الحقيقة، وسيلة خلقت من العطف ومن صبر الانتظار – وسيلة تبين له بأنها تحتوى على لحن من الأفكار أكثر هدوءا وأوسع مدى، بصفاء أرق مما كان عليه فى الماضى، مع نظرة ليست بالثابتة والمعتدلة كما كانت فى السابق، بل مترددة بعناء يفوق الوصف.

وراح يفكر فى سره بأنه من الآن وصاعدا سيرى الأشياء بعين البصيرة الجديدة التى تفتحت لديه فى هذه الأونة، والتى وجدت معه منذ ولادته ومنذ أن تفتحت عيناه على النور.

لقد ولدته الممرضة مرة ثانية كما ولدته أمه بصورة طبق الأصل وفتحت أمامه مجال العيش والحياة بعد أن ماتت لديه الرغبة فى الحياة عندما كانت نفسه تدفعه إلى الموت، كان يفهم بأن هذه الولادة الثانية لم تكن لترى النور لولا إنه اشتهى الموت فى السابق بصدق وعزم يفوقان الوصف.

ومع ذلك فان الحديث عن سفره إلى الجبل كان يتضخم تدريجيا، فبعد أن كان تلميحا أصبح رغبة ثم صار لزوما عندما استأجر والده غرفة له فى أحد المصحات للنقاهة، ولم يبق عليه إلا تحديد موعد السفر، لم يكن الحديث يتطرق إلى دروسه فقد أصبحت منسية، أو أن هناك إتفاقا جرى على تناسبها إلى وقت بعيد يغدو

فيه لوقا قويا وقادرا على مجابهة الدراسة من جديد دون أن يكون ذلك خطرا على حياته.

وفى غمرة الاستعداد للرحيل، كان لوقا يجلس وهو مدثر بالاغطية يمتع نظره بالسماء الصافية التى كانت تتلألأ مع اطالة الربيع الدافىء.

كانت السلبية تعجبه ولاسيما وقد علم الآن وجود نظام فى الاشياء لا زال مجهولا من قبله، ووجد قوة شديدة تدفعه بعد أن أصبح سعيدا للانضمام إلى ذلك النظام رغم طبعه الغريب الخفى.

وجاء يوم الرحيل ورغم أن نسيم الصيف كان قد أصبح حارا، إلا أن أمه التى وجب عليها أن ترافقه إلى المصحة أصرت على تلبسه الثياب الثقيلة مع معطف سميك فشعر بالمعطف وتركته لايستطيع الحراك، وهو قابع فى مقعده وسط هذه الغرفة التى تعج بأمتعته أيذانا بالرحيل.

فى تلك اللحظة التى وجب عليه فيها أن يشعر على الاقل بالاتجاه الذى طبعه الآخرون على حياته، كانت سلبيته تصر على المداومة والثبات، وتطول فتجعله بلا حراك مع أن السكون كان بحد ذاته يبدو غير ممكن على الاطلاق.

سمع فى الشقة الأصوات الصادرة عن أهله بينما الخدم تنقل الحقائب ورغم ذلك ظل بلا حراك كما لو إنه لم يكن مزمعا على السفر كأنه يشعر بحرارة كبيرة قد تكون مزعجة وقد تكون ممتعة وهو ينظر إلى السماء الشاحبة لهذا الصباح فلو أغلق إحدى عينية لتراءى له فى زجاج النافذة لطعا له دمعة يتوسع فى السماء ليصبح نوعا من الشق الأبيض الكبير.

وأخيرا سمع والدته تصرخ وهى تدخل عليه لاهثة :

- ماذا تفعل هنا ؟ إن السيارة بالأنتظار بالخارج ؟

.. عند ذلك وأتته القوة الدافعة التى أهابت به أن يتحرك، وهو يعلم أن الامر لو كان متعلق بسفريات أخرى لإمكانه الهرب منها ويهزأ بتحركات السفر المضحكة.

ولاكنه فى هذه المرة تبين له بأن الرحيل إلى الجبل كان ليس ذو أهمية عنده، كان ذهابه أو إمتناعه سيان لديه، فسواء وصل أو لم يصل هناك مزيدا من القطارات وعلى كل كان بإمكانه البقاء لتأخذ بطاقات السفر وتسجل عليها رقم القطار وتاريخ السفر، ترك لوقا أفكاره تغرق فى لحظة من الجمود المحبب الذى إعتاد عليه.

وكاد أن ينبس وهو جالس على حقيبته تحت سقف المحطة المقبب الذى يبدو كأنه مطلى باللون الأسود اللامع، إنه مزمع على السفر رغم تحركات الناس حوله وصراخهم وهم يسيرون جيبئة وذهابا، ان مشاركته للحياة الخارجية كانت تنقطع بصورة مستمرة كأنها شريط رفيع جدا، لم يحاول أن يربطه أو يتعب نفسه لأجراء ذلك.

ومن هذه العلاقات المتآلفة وجود أمه هناك فى المحطة بينما لم تزل سيارة الأجرة التى أقتهم واقفه فى مكانها، أما مساق الحوادث فى تلك الفترة الزمنية فقد كانت تمكنه من الإنطلاق على سجيته بالتقاعس والاسترخاء، فالقطار والعلاقات الأخرى كانت جميعها تسمح له بتحقيق ذلك.

ولم يتمكن لوقا بالرغم من سلبيته وعدم حركته من الانقطاع عن التفكير بأن هذا القطار الذى تقيأ عليه منذ أشهر مضت، يوم أن عاد من عطلته المدرسية، وراودته هذه الفكرة وهو يلحق بالحمال الذى حمل حقائبهم إلى القطار فتذكر أن هذا القىء كان نتيجة لثورة غضبى اضطرمت بها جميع أعضاء جسمه النحيل.

وما أن أصبح داخل القطار حتى شعر بالنعاس يراود أجفانه، رغم إمساكه برزمة الجرائد والمجلات التى أشتراها له والداته لكى يقطع بها طول الطريق، ومن ثم أحس بأن العجلات بدأت تدور تحت جسده وهو لايزال مستمرا فى نعاسه واستسلامه لجبروت النوم.

ولما فتح عينيه المغلقتين لرؤية بيوت الضاحية التى ظهرت وراء نافذة القطار على مرمى البصر كان بامكان المرء أن يشاهد خلال النوافذ الأبنية التى يسير القطار بمحاذاتها ويرى ساكنى تلك الأبنية وقد أفاقوا من نومهم وهم ينتقلون بين الأسرة التى لم يجر ترتيبها بعد.

صفّر عدة صفاراتا طويلة غير متقطعة ووبدأ ذلك بالسير حثيثا وهو يزيد فى سرعته تدريجياً، بينما أصبحت البيوت تتلاشى شيئاً فشيئا، وبعد أن مر القطار على جسر حديدى بأسرع ما يمكن وهو يطلق الضجيج والضوضاء التى تصم الأذان، بدأت طلائع الريف تبدو للعيان.

كان القطار يسير بأقصى سرعته وهذه السرعة بدت للوقا إنها تحتوى تباينا لذيذا لعدم الحركة التى أختص بها ولم يكن القطار بالنسبة له سوى شىء له وجهة، وهدف وإرادة، كعشق الممرضة له فى السابق، وكما كان تحريض أهله له، بل وإغرائه ليعيش.

وفجأة خامره شعور الاستحسان لأن ينحو طيلة حياته هذا النحو ينتهج مسلكه الموسوم بقوة خفية وواسعة الانتشار تشد إليه القطار وأهله والممرضة، ولما لم يستطع إلا أن يستسلم لهذه القوى الخفية بثقة عمياء وبلذة عميقة، ورأى نفسه جنديا يلبس الزى العسكرى فى جيس يجهل أسماء قواده، ويجهل طبيعه الحرب التى رمته بالجوع والجراح، فأصبح شحاذا يفترسه الفقر المدقع، أو غنيا يسلك ثروة كبيرة، ولكنه لايستفيد منها بقرش واحد.

أو أصبح كبيرا على رأس سلطة لم يجد ويسعى فى طلبها، وبعد كل ذلك لايستفيد من حياته شيئا وهو يستسلم للموت... يا لعذوبة نتيجة حادثة لم تكن منتظرة ولم يحاول التهرب منها.

وكان يذكى نغمة أفكاره ويغذيها ضجيج القطار وهو يمر فوق وصلات القضبان

الحديدية ودقات الدواليب السريعة المنتظمة، وصفير القطار الذى يمزق هدوء الريف خلف ظهره يراه فى هروبه من خلال زجاج النافذة.

نعم لقد دخل الآن فى وسط دوامة قوية كبيرة ومدوخة، ولم يكن بداخلها سوى قشة لا تقدر على منعه من سحبها، أملها الوحيد هو أن تتمكن من البقاء سابحة حتى النهاية واستسلم لها بثقة مغمض العينين كما استسلم منذ بضعة أيام خلت لمعانقة الممرضة ومضاجعتها.

لقد أنتهى بإغماض عينيه فعلا لكى يتمكن من التفكير بطريقة اجدى فى هذه الفكرة أما والدته الممتلئة بحب الاعتناء به، فقد وضعت تحت رأسه وسادة صغيرة معتقدة بأنه يرغب بالاستسلام للنوم.

وحتى ذلك الوقت لم يفكر بالممرضة إلا بصورة مبهمة بالنسبة لهذه المبادرة التى أشترك فيها، والتى لم يكن خلالها سوى آلة لا شعور فيها عندما قام بها، وظلت هذه الفكرة حتى بعد أن أرتمى على السرير ولفترة طويلة من الليل عندما داهمه سلطان النوم وسطا على أجفانه.

وخلال رقاده كان القطار قد دخل لإجتياز جسرا حديديا طويلا يصب فوق نهر كبير وبدا للفتى عند سماع ضوضاء العوارض التى تحمل الكوبرى وهى ترتج لمرور قافلة عربات القطار وتتابعها لمدة وجيزة وهو يسمع أنين الأصوات الصاخبة ودندنة جلبة الخطوات الداوية بأن القطار قد دخل ووقف فى محطة كبيرة. ولكن الليل كان لايزال حالكا وبعد أن تقلب إلى جهته الثانية عاد إلى النوم ثانية ولم يسمع تحركات القطار الذى كان يقاوم القاطرة كما لم يشعر بسيره من جديد.

كان لايزال يغط فى نومه ويفيق من وقت إلى آخر وهو يشعر بنفس اللذه ومن أن القطار لا يزال يتابع سيره، وعندما آفاق نهائيا كانت الشمس قد ارتفعت فى السماء، ثم ولدى سماعه دقات القطار البطيئة وأنين العجلات فهم بأن القطار كان يقصد تلاً مرتفعا.

وساعدته والدته على إرتداء ملابسه ثم إغتساله وجاء مراقب القطار واعاد الاسرة إلى مكانها وأخيرا جلس لوقا قرب النافذة وتطلع إلى المناظر التى يمر بها القطار، الذى كان فى تلك الأثناء يسير بسرعة وهو يدور حول الجبل على طول خانق خطر وضيق يرى فى أسفله سيل يهدر هديرا صاخبا.

وفى الجانب الآخر من السل كان هناك جبل آخر متعرج ينتصب بهية نحو السماء وتطلع لوقا إلى مياه السيل المزبدة والى الصخور التائهة التى كانت تلك المياه تدور حولها وتثب فوق قسم منها تتكسر وتتلاشى، واجال ببصره فى غابات الصنوبر الكثيفة التى ترتفع تدريجيا من أسفل الجبل إلى أعلاه كأنها طوابق.

وكانت المناطق السفلى من هذه الغابة تحاذى أمواج المياه الصاخبة، ويمتد جذور أشجارها عبر السيل فتشكل منظرا شاعريا عندما يتطلع المرء إلى تلك الصخور البرونزية اللون، أبان ضوء المصباح الأصفر الباهت أما أشجار الصنوبر فلقد كان لونها الأخضر الكثيف يغلف هذه العزلة بجو من السأم الحقير والبغيض معا، وللمرة الأولى التى لم ير لوقا الجبل الجمال الفائق الذى تصوره.

وكان القطار لايزال يلف حول الجبل إلى أن أنفتح أمامه منفذا، فشاهد لوقا فى آخر الممر قمة تفوق الجبلين فى علوهما وشموخهما وقد انتصبت متغطرسة والثلج الأبيض يجللها فتبدو كأنها عمود منتصب فى السماء.

وبدت الغيوم بفتح فجوات فيما بينما فتسربت أشعة الشمس لتتكسر على الثلوج البعيدة وتجعلها متلائمة براقة المظهر، بينما لم يكن يعلم لدى رؤيته لهذا البياض الناصع، لما استولت عليه حماسة مباغتة، عملت على نقل فكرة إلى هدف مجهول، ولكن بشعور جديد فبدلا من نقله إلى ذلك الهدف المجهول، أشتهى أن ينتقل إلى هذه الثلوج العالية البيضاء بكل نفسه وفكره وشعوره.

وفرك عينيه لينظر جيدا ثم بدأ يتطلع الى هذا الجبل، وكلما أطال النظر اليه

شعر بالبهجة والسرور ينموان فى روحه، وهذا الفرح المسكر الذى يطمأن إليه لم يعرف له أية أسباب أو دافع خارجى يهيب به إلى السور من مشاهدة قمة من الثلج.

ومع ذلك فلم يستطع أن يمنع نفسه من التأكد من أن هذا المنظر بالذات هو الذى يحرك فيه الرغبة منذ مدة طويلة ويجعلها تهفو إلى أمل بعيد.

ثم التفت نحو السيدة والدته وسألها :

- والمرضة ؟

أجابت والدته وهى مندهشه من سؤاله :

- قد تكون الآن تعتنى بمريض آخر.

وقال لوقا :

- نعم إنها أعتنت بى جيدا.

ثم قال مؤكدا كلامه :

- نعم لقد كانت ممتازة فى عملها... وبالتأكيد لولا قيامها بتمريض لتأخر شفائى.

وقالت والدته :

- من المؤكد إنها طيبة القلب.

وقال لوقا :

- نعم كانت جيدة.

وقالت الأم :

- بالمناسبة لقد اتصلت بى عدة مرات بالتليفون لتطمئن على صحتك.

وقال لوقا بلهفة :

- وبماذا أجبت عليها ؟

وردت الأم بإطمئنان :

- بأنك قد شفيت.

فأغمض لوقا عينيه عندما دخل القطار فى نفق طويل بعد أن أطلق صفيرا شاركيا. ثم فتح عينيه ثانية ليجد نفسه فى ظلام مطبق ممزوج بهواء رطب قادم من الطرفين المظلمين، هواء بارد محمل برطوبة ثقيلة، ونفحات بخار دافئة يرتطم بخديه النديين.

وظهر له القطار وجلبة العجلات التى زادها طول النفق صخبا ، كصوت له نغمة واحدة تتكرر بحماس وتعيد ترديد نفس المقاطع لكلمات معينة، هذه الكلمات المفعمة بالامل قد رافقته منذ ان افاق من الهذيان.

ولازمته خلال ندة شفائه البطئ، وفهم بأنه من الآن فصاعدا لن يدرك المعنى الجديد لضجيج القطار فى النفق فقط، أو لبياض الثلوج على قمة الجبل بل سيكون المعنى الجديد من حظ جميع الأشياء التى ستكلمه باللغة الصامتة.

ثم وعلى أثر آخرا ظهر القطار ثانية إلى الضوء ووضح النهار وهو يسير على خط مستقيم ووضحت المحطة النهائية... الوصول...

تمت

سلسلة الأدب العالمي

08



العصيان

صدر من سلسلة الأدب العالمى



العالمية للكتب والنشر